شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية

للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى ــ كلية الآداب جامعة القاهرة

من الحقائق المسلم بها فى تاريخ العصور الوسطى ، أن الانتصارات الكبيرة والمكاسب الضخمة التى حققها الصليبيون فى الشرق الأدنى غداة وصولهم اليه أول مرة فى أواخر القرن الحادى عشر ، لم يكن مردها قوة خارقة أو شجاعة نادرة أبداها الغزاة ، بقدر ما كان مردها ضعف القوى الاسلامية فى المنطقة ، ووقوعها مع بعضها البعض فى منازعات وخلافات مكنت الأعداء عندئذ من النفاذ الى صميم بلادهم والاستقرار بالشام نحوا من قرنين من الزمان .

والحق ان سببا أساسيا من أسباب ضعف المسلمين فى الشرق الأدنى فى القرن الحادى عشر كان ازدياد الخلاف بين السنة والشيعة ، وهو الخلاف الذى خلق صداما فكريا ، وأوجد صراعا روحيا ، وولد بعثرة وفرقة سياسية بين المسلمين بعضهم وبعض ــ وخاصة فيما بين الفرات والنيل ــ ؛ واذا بنا أمام جبهتين متعاديتين ، ربما فضلت احداهما محالفة العدو الدخيل على المسلم الخارج عن مذهبها . وقد اشتدت الفتن المذهبية بين الشيعة والسنة فى العراق ــ وخاصة بغداد ــ طوال القرن الحادى عشر للميلاد ، وجاء كثير منها مصحوبا بالقتل والنهب والفوضى ، الأمر الذى زاد من خطورته انضمام بعض الأمراء وكبار رجال الدولة الى هذا الجانب أو ذاك ، من الجانبين المتنازعين(١) . ولم تقتصر هذه المنازعات والخلافات المذهبية على العراق ، وانما امتدت الى مصر ، التى لم تكن « تخلو من الفتن فى يوم عاشوراء عند قبر كلثم وقبر نفيسة بنت الحسين ابن زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب »(٢) .

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ٣ ، ص ٣٦٧ ، ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٩ ، ص ١٥ ، ٢٦

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٩٨

واذا كان الخلاف قد ظهر فى صورة واضحة داخل الدولة العباسية السنيَّة فى العراق ، وداخل الدولة الفاطمية الشيعية فى مصر ، فانه كان لا بد وأن يظهر بالشام فى صورة صدام عنيف بين الخلافتين العباسية والفاطمية . ذلك أن بلاد الشام بحكم موقعها الجغرافى تعتبر حلقة الوصل بين مصر والعراق . وقد جاء ضعف الخلافة العباسية فى بغداد مصحوبا بانحسار نفوذها عن كثير من البلاد ومن جملتها بلاد الشام ، وحدث ذلك فى الوقت الذى استولى الفاطميون على مصر فى القرن العاشر للميلاد ، وأخذوا يتطلعون الى بلاد الشام ، بل الى العراق نفسه لمنازعة الخلافة العباسية زعامتها على العالم الاسلامى[1] . وصحب امتداد النفوذ الفاطمى الى الشام انتشار المذهب الشيعى ، وظهور جماعات منهم بين ربوع الشام ، مثل الحاكمية والآمرية والدروز[2] . ولم تلبث أن غدت بلاد الشام هى الأخرى مسرحا للمنازعات بين الشيعة والسنة ، فيحكى أبو المحاسن أن الناس فى دمشق تألموا عندما أذن المؤذنون فيها بحى على خير العمل ، تنفيذا لأوامر جعفر بن فلاح ، قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، كما هاجم القرامطة الشام سنة ٩٧١ م (٣٦٠ هـ) ، مما جعل البلاد مسرحا للقتال والفتن[3] .

ومهما يكن من أمر هذه الأحداث ، فالذى يهمنا هو أن هذا الانقسام جاء على حساب وحدة الجبهة الاسلامية ، وعلى حساب تماسك بناء المسلمين فى الشرق الأدنى ، الأمر الذى جعل الأمور ممهدة أمام الصليبيين لغزو الشام فى سهولة ، والاستقرار فيه طويلا دون صعوبة . وزاد من تسهيل مهمة الصليبيين أن الخلافة الفاطمية التى مدت نفوذها الى الشام فى قوة وجرأة أواخر القرن العاشر للميلاد ، هذه الخلافة لم تلبث أن تعرضت للضعف والخور فى القرن الحادى عشر ، مما أعجزها عن الاحتفاظ بمكاسبها فى بلاد الشام ، فأخذ نفوذها ينحسر تدريجيا عن تلك البلاد . والمتأمل فى تاريخ الدولة الفاطمية يستطيع فى سهولة أن يلمس ما انتابها من ضعف على عهد الخليفة المستنصر بالله (١٠٣٥ — ١٠٩٤) نتيجة لانخفاض النيل واشتداد الغلاء وانتشار الوباء ، وهو ما يعرف

---

(١) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطمية الخارجية ، ص ١١١ ، ١٦٣

(٢) الأنصارى الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢٠٠

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ص ٥٨

باسم الشدة المستنصرية العظمى ، وما صحب ذلك من اضطراب جهاز الحكم وكثرة ثورات الجند[١] .

وفى ذلك العهد بالذات انسلخ عن الدولة الفاطميـــة كثير من ممتلكاتها بالشام . ففى سنة ١٠٧٠ ، أعلن قاضى صور – ابن أبى عقيل – خروجه عن طاعة الفاطميين واستقلاله بمدينة صور ، واستنجد بالسلاجقة للوقوف فى وجه محاولات أمير الجيوش بدر الدين الجمالى لاخضاعه[٢] . ولم يتمكن الفاطميون من استرداد صور من بنى عقيل الا سنة ١٠٨٩[٣] . أما قاضى طرابلس – الحسن ابن عمار – فقد انفصل عن الفاطميين أيضا سنة ١٠٧٠ ، وأقام امارة مستقلة فى طرابلس ، ظلت قائمة حتى استولى الصليبيون على تلك المدينة سنة ١١٠٩ . وفى سنة ١٠٧١ ، استولى أتسز بن أوق – أحد القادة الأتراك من أتباع السلطان ألب أرسلان – على الرملة وبيت المقدس وفلســـطين بأكملها عدا أرسوف ؛ كما استولى سنة ١٠٧٥ على دمشق والمنطقـــة المحيطة بها[٤] . وهكذا وصل الصليبيون الى الشام أواخر القرن الحادى عشر ليجدوها ميدانا لصراع حاد بين السلاجقة السنة والفاطميين الشيعة .

وثمة حقيقة هامة تواجه كل من يدرس تاريخ الحركة الصليبية فى الشرق الأدنى ، هى أن دور الدولة الفاطمية فى تلك الحركة لم يحظ حتى الآن بالقدر الكافى من عناية الباحثين . وفى رأينا أن مرجع هذه الحقيقة عدة أسباب . أولها : أن الحملة الصليبية الأولى وصلت الى الشرق الأدنى فى نهاية القرن الحادى عشر ، وقد أخذت الخلافة الفاطمـــية تدخل فعلا فى الدور الثانى من أدوار تاريخها ، وهو الدور المتسم بالضعف فى الداخل والخارج ، والذى سيطر فيه الوزراء العظام على شئون الخلافة . وهذا الدور بالذات يمثل صفحة قاتمة لم تحظ كثيرا بعناية المؤرخين بقـــدر ما حظى به الدور الأول من تاريخ الدولة الفاطمية ، وهو الدور المتصف بالقوة والعظمة والثروة وامتداد النفوذ وسعة

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ١٨ — ٢٤

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٢٨ ، ابن ميسر : اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٢٨

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨ — ٩٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٨٧

السلطان . وعلى هذا فان اهمال العناية بجهود الفاطميين فى الحروب الصليبية ، انما هو فى حقيقة الأمر مظهر من مظاهر الاهمال العام الذى تعرض له تاريخهم فى دوره الأخير . وثانيها : أن الحروب الصليبية فى الشام ظلت أحداثها الكبرى الرئيسية ترتبط حتى سقوط الدولة الفاطمية بشمال الشام لا بجنوبه . وسبب ذلك أن المقاومة الأساسية التى صادفها الصليبيون فى الدور الأول من أدوار الحركة الصليبية جاءت من جانب السلاجقة فى شمال العراق والأتابكيات التابعة لنفوذهم فى الموصل وحلب ، الأمر الذى ألقى ظلا حجب وراءه النشاط الصليبى الذى نهضت به الدولة الفاطمية ، فضلا عن طمس دور الدولة الفاطمية فى مقاومة امتداد النفوذ الفاطمى فى ذلك الاتجاه . وثالثها : أن مصر فى العصر الفاطمى لم تصبح مسرحا أساسيا لنشاط الصليبيين فى القرن الثانى عشر للميلاد الا فى االأحداث التى ارتبطت بسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، الأمر الذى جعل الباحثين يعتبرون ذلك الدور من أدوار الحركة الصليبية أكثر ارتباطا بنشأة الدولة الأيوبية الوليدة منه بالدولة الفاطمية المتداعية .

هذه هى العوامل الأساسية التى نعتقد أنها حجبت عن أعين الباحثين الدور الهام الذى أسهمت به الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية . ولعله قد آن الأوان لكشف النقاب عن هذا الدور وعلاج موقف الخلافة الفاطمية من الحركة الصليبية علاجا متكاملا مترابطا منذ وصول الحملة الصليبية الأولى الى أطراف الشام فى أواخر القرن الحادى عشر ، حتى سقوط الخلافة نفسها سنة ١١٧١ .

ولفهم حقيقة هذا الدور ينبغى أن ندرك العوامل الخفية التى تحكمت فى نشاط الدولة الفاطمية تجاه الصليبيين ، ووجهت هذا النشاط ؛ وهى عوامل نستطيع أن نلخصها فيما يلى :

أولا : انشغال حكام مصر فى العصر الفاطمى الثانى بسوء الأوضاع الداخلية ، اذ بدت الدولة الفاطمية فى ذلك العصر وكأنها غرقت فى بحر لجىّ من الفوضى بسبب الأزمات الاقتصادية وانتشار الأوبئة من ناحية ، والصدام بين المسلمين وطوائف المسيحيين الذين استعان بهم بعض الخلفاء من ناحية أخرى ؛ ثم بين الخلفاء الفاطميين ووزرائهم أو بين المتنافسين حول منصب الوزارة من ناحية ثالثة .

ثانيا : تحكم روح العداء بين الفاطميين فى مصر والسلاجقة بالشام ـ وخاصة حكام دمشق ـ ، وهو العداء الذى جعل الفاطميين الشيعة ينظرون دائما الى سلاجقة الشام نظرة شك وريبة ، بل خوف وتحفز . واذا كان الفاطميون قد بذلوا جهودا ضد الصليبيين بالشام ، فان الباحث فى تلك الجهود يلمس حقيقة هامة ، هى أن الفاطميين نظروا دائما الى الصليبيين بعين ونظروا الى السلاجقة بالعين الأخرى . الأمر الذى لم يوفر للفاطميين شيئا من قوة التركيز المادى والمعنوى فى مواجهتهم للصليبيين .

ثالثا : أن الخلفاء الفاطميين أنفسهم لم يتحمسوا فى ذلك الدور لفكرة جهاد الصليبيين ، بل على العكس ربما رأى بعض أولئك الخلفاء فى الصليبيين درعا يحميهم من خطر السلاجقة السنيين . واذا كانت حركة الافاقة واليقظة لجهاد الصليبيين قد تأججت أحيانا فى الدولة الفاطمية ، فان زعماء هذه الحركة كانوا من الوزراء وليس الخلفاء . ومن أمثلة وزراء الدولة الفاطمية الذين تزعموا هذه الحركة ، الأفضل ورضوان بن الولخشى وابن السلار .

رابعا : اتصفت الأعمال الحربية التى قامت بها الدولة الفاطمية ضد الصليبيين فى ذلك الدور بسوء النظام والاهمال وعدم تقدير خطورة الموقف ، وهى النواحى التى ظهرت بوضوح فى الخلافات بين قادة الجيش الفاطمى ، فضلا عن سلوك قادة الأسطول وحكام القواعد الفاطمية بالشام .

والواقع أن الخلافة الفاطمية لم تدرك طبيعة الحركة الصليبية عند وصول الحملة الصليبية الأولى الى أطراف بلاد الشام سنة ١٠٩٧ . وربما كان عدم فهم طبيعة هذه الحركة هو الذى جعل الدولة الفاطمية تتخبط فى سياستها تجاه الصليبيين فى أول الأمر ، بسبب عدم ادراكها حقيقة نواياهم . وكان صاحب السلطة الفعلية فى مصر عندئذ هو الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى ، الذى ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمى المستعلى (١٠٩٤ — ١١٠١) والعشرين سنة الأولى من عهد الخليفة الآمر ، أى حتى سنة ١١٢١ . ويبدو عدم ادراك الأفضل لحقيقة الحركة الصليبية فى أنه عندما سمع بأن الصليبيين الذين وصلوا الى الشام اشتبكوا مع الأتراك السلاجقة ـ أعداء الدولة الفاطمية الألداء ـ فكر الأفضل فى أن يقيم تحالفا بينه وبين الصليبيين ، بحيث تكون أنطاكية

للصليبيين وتكون بيت المقدس للفاطميين[١] . وربما استند الوزير الأفضل فى تفكيره هذا الى بعض السوابق التاريخية ، لأن الدولة البيزنطية أيام صحوتها فى القرن العاشر لم تتعد أملاكها فى بلاد الشام مدينة أنطاكية ، فظن الأفضل أن أولئك الصليبيين انما أتوا فى نهاية القرن الحادى عشر ليفعلوا فى بلاد الشام مثلما فعل الامبراطور نقفور فوقاس والامبراطور حنا الشمشقيق فى القرن العاشر[٢] .

وكان أن أرسل الأفضل سفارة الى الصليبيين وصلتهم وهم أمام أنطاكية (يناير — فبراير ١٠٩٨) . ويبدو أن هذه السفارة كانت تحمل عرضا محددا ، خلاصته أن يتعاون الطرفان فى القضاء على السلاجقة ، على أن تقسم الغنيمة بعد ذلك بينهما ، بحيث يكون القسم الشمالى من شمال الشام (سوريا) للصليبيين ، فى حين يحتفظ الفاطميون بالقسم الجنوبى (فلسطين)[٣] . ولعل أخبار هذا الاتصال السريع بين الفاطميين والصليبيين سنة ١٠٩٨ ، هى التى جعلت بعض المسلمين المعاصرين يظنون أن الخلافة الفاطمية هى التى أرسلت الى الصليبيين تستدعيهم الى الشام لمهاجمة السلاجقة ، أو يكونوا حاجزا فاصلا بين السلاجقة من ناحية والدولة الفاطمية من ناحية أخرى . ويعبر المؤرخ ابن الأثير عن ذلك بقوله : « وقيل ان أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام الى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الاقسيس (أتسز) الى مصر وحصرها ، خافوا ، فأرسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوها ويكونوا بينهم وبين المسلمين ![٤] » .

ومن ناحية أخرى ، فان هناك فى المراجع ما يشير الى أن الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين كان قد نصح الصليبيين عند مرورهم بالقسطنطينية فى طريقهم الى الشرق — (سنة ١٠٩٦ — ١٠٩٧) — بأن يحاولوا محالفة الفاطميين فى مصر ، ليكونوا لهم عضدا ضد السلاجقة فى الشام وشمال العراق . ومع أنه لا يوجد لدينا دليل يثبت استجابة الصليبيين لتلك النصيحة فى ذلك الوقت ،

---

(١) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 26.

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, Tome I, p. 83.

(٣) Setton : A History of the Crusades, vol. 1, p. 316.

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٠ هـ . ويقصد ابن الأثير بالمسلمين فى ختام عبارته ، أهل السنة .

الا أن بعض المراجع الصليبية أشارت الى أنهم أرسلوا من نيقية سفارة الى مصر[١] . ومهما يكن فى هذه الاشارة من الواقع ، فالذى يهمنا هو أن الصليبيين لم ينسوا نصيحة الامبراطور البيزنطى ، مما جعلهم يرحبون بالسـفارة التى أرسلها اليهم الأفضل فى أوائل سنة ١٠٩٨ وهم أمام أنطاكية[٢] . ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة واضحة عن مدى انقسام العالم الاسلامى على نفسه فى ذلك الدور ، بين سنة وشيعة ، وعرب وترك ؛ وما سببه هذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعا ، الأمر الذى مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الجميع .وتصور لنا المصادر الصليبية المعـاصرة هذا الانقسام بوضوح ، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسـلاجقة من كوارث على أيدى الصليبيين[٣] .

والواقع أن الموقف السلبى الذى وقفته الخلافة الفاطمية من الحملة الصليبية الأولى عند وصولها الى شمال الشام ، أثار حيرة المؤرخين المسلمين ، فيعجب المؤرخ أبو المحاسن من موقف الفاطميين ، وعدم مشاركتهم القوى الاسلامية التى نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين ، ويقول فى ذلك : « ولم ينهض الأفضل باخراج عساكر مصر ، وما أدرى ما كان السبب فى عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال ...! » . ثم يسترسل أبو المحاسن فيشرح كيف خرجت عساكر المسلمين فى العراق والشام لصد زحف الصليبيين « كل ذلك وعساكر مصر لم تتهيأ للخروج ... »[٤] على أن الاجابة على هذا التساؤل واضحة ، هى أنه اذا كان الأفضل قد قرر أن يعمل ، فان القرار الذى اتخذه بالعمل كان موجها ضد السلاجقة لا ضد الصليبيين . فلا أقل من أن ينتهز الأفضل فرصة انشغال السلاجقة بالتيار الصليبى الذى دهم شمال الشام ليسترد البلاد والمراكز التى كانت فى وقت ما تحت سيطرة الخلافة الفاطمية . وعلى هذا الأساس اختار الوزير الأفضل أن يعمل فورا . وكان الأفضل قد استولى على مدينة صور «بالسيف» فى ربيع سنة ١٠٩٧ من الأراتقة ، ولكنه لم يحاول أن يهاجم بيت المقدس عندئذ ،

---

(١) Runciman : Hist. of the Crusades, I, p. 230 & Michaud : Hist. des Croisades, I ; p. 362.

(٢) Riant : Inventaire des Lettres des Craisades, I, p. 162.

(٣) Guillaume de Tyr ; I, p.p. 191 - 192.

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٤٧ — ١٤٨

وترك ذلك للوقت المناسب[١] . ولم يلبث أن حان ذلك الوقت المناسب فى صيف سنة ١٠٩٨ — والصليبيون ما زالوا فى منطقة أنطاكية — فخرج الأفضل على رأس جيوشه واستطاع أن يسترد بيت المقدس من سكمان (سقمان) الأرتقى ، وأخيه ايلغازى فى أغسطس ١٠٩٨[٢] . وبذلك عادت سيادة الدولة الفاطمية مرة أخرى على فلسطين ، بحيث لم تكد تنتهى سنة ١٠٩٨ ، الا وكانت حدود تلك الدولة قد امتدت الى نهر الكلب شمالا ومجرى الأردن شرقا[٣] .

وقد صح حساب الأفضل فى أول الأمر ، لأن الأتراك كانوا مشغولين بالغزو الصليبى واقامة جبهة فى الشمال ضد الفرنجة الغزاة ، فلم يتمكنوا من ارسال نجدة لأقربائهم فى بيت المقدس ترد عادية الفاطميين . وفى الوقت نفسه استفاد الصليبيون فائدة كبرى من تلك الخطوة التى اتخذها الفاطميون ، لأن تهديد الأفضل لفلسطين وبيت المقدس سبب ارتباكا للاتراك السلاجقة فى أشد الأوقات حرجا[٤] . هذا فضلا عن أن السفارة التى أرسلها الفاطميون الى الصليبيين عند أنطاكية ، أكسبت أولئك الأخيرين وضعا سياسيا معترفا به فى ركن هام من أركان العالم الاسلامى . وهكذا أخذ الصليبيون يلعبون دورهم فى مهارة فائقة ، فلم يكتفوا ببث شعور الطمأنينة فى نفوس الفاطميين ، واعطائهم صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم فى بلاد الشام ، وانما حاولوا أيضا أن يسدلوا غشاوة على أبصار سلاجقة دمشق ، فأرسلوا اليهم يطمأنونهم الى أنهم لا يطمعون الا فى استرداد الأماكن والبلدان التى كانت تابعة للبيزنطيين فيما مضى ، أى الرها وأنطاكية واللاذقية !![٥] .

على أن الحقيقة لم تلبث أن تكشفت ، ورأى الفاطميون أن الغزاة الصليبيين لم يقفوا عند حد الاستيلاء على أنطاكية وغيرها من المراكز فى شمال الشام ؛ وانما أخذوا يوغلون فى جنوب الشام صوب فلسطين ، وعندئذ أرسل الفاطميون الى الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين يسألونه عما اذا كانت تلك الحركة

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ، حوادث سنة ٤٩٠.
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ،
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥
(٣) Setton : op. cit. ; I ; p. 316.
(٤) Grousset : op. cit., I ; p.p. 84 - 85.
(٥) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ .

تعمل لحسابه ، فأنكر الامبراطور علاقته بها[١] . وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس هو الهدف الأساسى للصليبيين ، أرســل اليهم سفارة وصلتهم قرب طرابلس ، تحمل الهــدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين ، كما تحمل لهم عرضا من الخليفة الفاطمى ، خلاصته السماح لحجاج الصليبيين بالحج وزيارة كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، على شكل مجموعات من مائتى أو ثلثمائة حاج ، بشرط ألا يكونوا مسلحين[٢] . ولكن الصليبيين ردوا على السفارة الفاطمية بأنهم سيتمكنون من الحج فعلا ، ولكن باذن الله وليس باذن الخليفة الفاطمى[٣] !! وكان معنى ذلك بداية الصدام المسلح بين الفاطميين والصليبيين من أجل بيت المقدس .

وهنا نلاحظ أنه اذا كان الفــاطميون قد بسطوا سيادتهم على فلسطين وساحل الشام جنوبى نهر الكلب ، الا أنهم — فيما يبدو — لم يتركوا قوات كافية لتدعيم نفوذهم والمحافظة على مكاسبهم فى تلك الجهات ، وذلك باستثناء حامية بيت المقدس من ناحية وبعض المراكز الساحلية التى ظل الأسطول الفاطمى قادرا على امدادها بالرجال والزاد من ناحية أخرى[٤] . وكانت هذه المراكز الأخيرة أول ما تعرض لهجوم الصــليبيين بحكم مرورهم بها بعد أن غادروا طرابلس فى طريقهم الى بيت المقدس . وعندما وصل الصليبيون الى الرملة ، وجدوها خالية ، بعد أن هجرها أهلها ، فعقدوا فيها مجلسا للحرب فى أوائل سنة ١٠٩٩ ، ناقشوا فيه عدة مسائل ، أهمها الرأى القائل بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين فى مصر ، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلا فى القاهرة ، وأنه اذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة فى بيت المقدس ، فعليهم أن يؤمنوا ظهرهم بالاستيلاء على الدلتا[٥] . ولكن اذا كان الصليبيون قد استطاعوا أن يضعوا هذه الفكرة موضع التنفيذ فى القرنين الثانى عشر والثالث

---

(١) Runciman : op. cit. ; I, p. 272.

ويلاحظ أن سوء التفاهم بين الامبراطورية البيزنطية والصليبيين تحول الى عداء بعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية ، مما جعل الامبراطور البيزنطى يحرض المسلمين أحيانا ضد الصليبيين .

(٢) Michaud : op. cit., I, p.p. 362 - 363

(٣) Guillaume de Tyr ; I, p.p. 305 - 306.

(٤) Runciman : op. cit. I, p. 275.

(٥) Raymond d'Agiles, p. 299.

عشر ، فانهم كانوا فى أواخر القرن الحادى عشر ــ وقبل الاستيلاء على مدينة بيت المقدس بالذات ــ فى موقف لا يمكنهم من الاقدام على غزو مصر .

ولم يلبث أن زحف الصليبيون على بيت المقدس ، فى الوقت الذى كان حاكم المدينة من قبل الوزير الأفضل ــ وهو افتخار الدولة [١] ــ قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين ، فسمم الآبار وقطع موارد الماء وأخفى المواشى [٢] ، فضلا عن اهتمامه بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار ، معتمدا فى الدفاع عن بيت المقدس على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودان [٣] . ومع ذلك فقد سقطت بيت المقدس فى أيدى الصليبيين فى منتصف يوليو ١٠٩٩ ، وكان افتخار الدولة ــ حاكم المدينة الفاطمى ــ من جملة القلائل الذين « بذل لهم الفرنج الأمان » وسمحوا لهم بالخروج الى عسقلان [٤] .

والواقع ان الخلافة الفاطمية لم تتخاذل أمام الصليبيين عندما علمت بنواياهم للهجوم على بيت المقدس . وكان أن جمع الوزير الأفضل رجاله وخرج من مصر ليحول دون استيلاء الصليبيين على أولى القبلتين وثانى الحرمين ، ولكنه وصل عسقلان فى أوائل أغسطس « وقد فات الأمر » ؛ أى بعد أن استولى عليه الصليبيون بعشرين يوما [٥] . وهكذا أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان يعتقد فى وقت ما أن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال الشام ، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة . ولم يسع الأفضل عند وصوله الى عسقلان سوى أن يرسل « رسولا الى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه !! [٦] » .

ويبدو أن الوزير الأفضل لم يكن قديرا فى ميدان الحرب بقدر ما هو معروف عنه من مهارة فى ميادين السياسة والادارة ، اذ يروى صاحب مرآة الزمان أنه بعد وصوله الى عسقلان أضاع وقتا ثمينا « ينتظر الأسطول فى البحر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٤٩٢ هـ ، ابو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ص ١٤٨

(٢) Gesta Francorum, p. 199 & Raymond d'Agiles, p.p. 293 - 294.

(٣) Foucher de Chartres (Hist. Occid, III) p. 359.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧

(٦) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٤٣٦ (Rec. Hist. Orient. III).

والعرب[١] » . وفى الوقت الذى كان الأفضل منتظرا فى عسقلان ، اكتشف الصليبيون أمره ، فبادروا بالهجوم لأنه خير وسائل الدفاع[٢] . وما كاد يجتمع شمل القوى الصليبية قرب الرملة فى عاشر أغسطس ، حتى أخذوا يزحفون جنوبا فى اتجاه عسقلان حيث باغتوا القوات الفاطمية ، على قول ابن الأثير[٣] . وفى المعركة التى دارت بين الطرفين فى ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ حلت الهزيمة بالفاطميين ، وتشتت شملهم بعد قليـــل ، حتى أن بعضهم لم يجد مفرا سوى البحر فألقوا بأنفسهم فى اليم حيث غرقوا ، فى حين احتمى البعض الآخر « بشجر الجميز ، وكان هناك كثيرا ، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من كان فيه » . أما الوزير الأفضل فقد هرب الى عسقلان ومعه بعض رجاله ، ومنها ركبوا سفينة فى البحر قاصدين مصر[٤] .

ومن الواضح أن النصر المعنوى والأدبى الذى حققه الصليبيون فى عسقلان فاق بكثير الغنائم المادية التى غنموها[٥] . ذلك أن انتصارهم فى عسقلان قضى على هيبة الفاطميين فى الشام ، فقبعوا فى مصر يشاهدون مدن فلسطين وهى تتساقط واحدة بعد أخرى فى قبضـــة الغزاة[٦] . وأكبر مثل على استكانة الفاطميين فى ذلك الدور موقفهم فى الدفاع عن أرسوف . ذلك أن الأمير جودفرى دى بوايون أخذ يشن من الرملة غارات عدوانية على ضواحى أرسوف لاجبار أهلها على الاستسلام . وقد استطاع الصليبيون أن يظفروا فى فبراير سنة ١١٠٠ ببعض أهالى أرسوف الذين خرجوا لمباشرة نشاطهم السلمى فى مزارعهم القريبة، فانتقم الصليبيون من أسرى المسلمين انتقاما وحشيا بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم[٧] . ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية فان أهلها أرسلوا سفارة عاجلة الى الوزير الأفضل لطلب المعونة ، وعندئذ اكتفى الأفضل بأن بعث اليهم قوة صغيرة من ثلثمائة جندى . ولم تلبث هذه القوة الفاطمية أن وقعت فى كمين

---

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ص ٥٢٠ . (Rec. Hist. Orient. III).

(٢) Stevenson : op. cit., p. 35.

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٦٤

(٥) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 297.

(٦) Grousset : op. cit. I, p. 175.

(٧) Idem ; p. 182.

نصبه الصليبيون فى مارس سنة ١١٠٠ ، مما جعل أهل أرسوف يؤمنون بعدم جدوى الحماية الفاطمية ، فدخلوا فى تبعية الصليبيين[١] . كذلك تأكد حكام عسقلان وقيساريه وعكا من عجز الدولة الفاطمية عن حمايتهم ، فأعلنوا تبعيتهم للصليبيين ، وتعهدوا بدفع جزية كبيرة لهم رمزا لهذه التبعية[٢] . وفى عام ١١٠١ استولى بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس على أرسوف ثم على قيسارية[٣] .

على أن استكانة الفاطميين ، والجمود الذى انتابهم عقب سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين لم يستمر طويلا ، فقام الوزير الأفضل بارسال ثلاث حملات كبيرة الى فلسطين سنة ١١٠١ وسنة ١١٠٢ وسنة ١١٠٥ . أما الحملة الفاطمية الأولى سنة ١١٠١ فكانت بقيادة المملوك سعد الدولة القواس . وقد تجمعت هذه الحملة فى عسقلان التى صارت بمثابة مركز انطلاق جميع الحملات التى خرجت من مصر ضد الصليبيين فى تلك المرحلة . على أن تلك الحملة أضاعت كثيرا من الوقت فى عسقلان ، فقضى الجيش الفاطمى عدة أشهر بلا عمل ، ربما فى انتظار امدادات جديدة تأتيه من مصر ، مما أتاح فرصة كافية لبلدوين استعد فيها وجمع قواته ووضع خطته[٤] . وأخيرا تحركت الجيوش الفاطمية فى أوائل سبتمبر بعد أن وصلتها الامدادات المطلوبة ، فاتجهت الى منطقة الرملة حيث تستطيع تهديد كل من يافا وبيت المقدس . وفى الموقعة التى دارت بين الفاطميين والصليبيين فى السهل الواقع الى الجنوب الغربى من مدينة الرملة ، انتصر الصليبيون بفضل تماسكهم ووحدة صفهم واحكام خطتهم ، وقتل من المسلمين عدد كبير من بينهم قائد الحملة الفاطمية سعد الدولة القواس ، فى حين فر بقية الجيش الفاطمى مندحرا الى عسقلان[٥] .

ولم يستطع الوزير الأفضل صبرا على الهزيمة التى حلت بجيوشه على أيدى الصليبيين ، فأسرع الى اعداد حملة أخرى كبيرة من العرب والسودان ،

---

(١) Albert d'Aix, p.p. 513 - 514.

(٢) Idem ; p. 515.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٩ ، أبو المحاسن : النجوم ، جـ ٥ ص ١٦٧

(٤) Stevenson : op. cit. p.p. 44 - 45.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ ، Albert d'Aix, p. 553.

واجتمعت هذه الحملة التى بلغت عشرين ألف رجل فى عسقلان فى منتصف مايو ١١٠٢ تحت قيادة شرف المعالى ابن الوزير الأفضل[١] . وقد اتبعت هذه الحملة نفس الطريق الذى سلكته الحملة السابقة ، فاتجه الجيش الفاطمى من عسقلان الى الرملة واللد ويازور ، ومن هناك اتجهوا من جديد لتهديد يافا وبيت المقدس. وكان الملك بلدوين الأول قد اتخذ اهبته ، فحشـــد فى يافا بضعة آلاف من الصليبيين ، ولكن يبدو أنه اغتر بانتصاره السابق ، واستخف بأمر الفاطميين ، فخرج من بيت المقدس فى ١٧ مايو فى قلة من الفرسان تبلغ مائتى فارس ، قاصدا الرملة[٢] . وكان بلدوين يسير على رأس رجاله فى غير نظام فيما بين يازور والرملة ، عندما تعرضوا لهجوم مباغت من جانب المسلمين . وربما ظن المسلمون أن تلك الشرذمة من الصليبيين ليست الا مقدمة لجيش صليبى كبير آت فى أعقاب الملك ، فاختاروا أن يباغتوا الملك ورجاله فورا قبل أن يلحق به بقية جيشه . ولم يكن فى استطاعة بلدوين وفرسانه الثبات أمام الجموع الاسلامية « فانهزم الفرنج وقتل منهم مقتله عظيمة »[٣] . وفر بعضهم الى يافا ، فى حين لجأت البقية الباقية ــ ومن ضمنهم الملك بلدوين نفسه ــ الى الرملة[٤] .

على أن الرملة كانت مدينة صغيرة ضعيفة التحصين . ولو أسرع الفاطميون لاستولوا عليها ودخلوها فى غير عناء ليقبضوا على غريمهم ملك بيت المقدس الصليبى ، ولكن غروب الشمس وانتشـــار الظلام جعلهم يؤجلون ذلك حتى الصباح التالى[٥] . على أن بلدوين استطاع الفرار من الرملة ليلا ، وبذلك أفلت من قبضة الفاطميين الذين أخـــذوا يطاردونه فى سرعة ، بعد أن استولوا على الرملة وأسروا وقتلوا من فيها من الصليبيين[٦] . ولم تلبث أن حاصرت الجيوش الفاطمية يافا ، فى الوقت الذى كانت مطاردة بلدوين تجرى على قدم وساق . وعندما سمع بلدوين ــ وهو فى طريقـــه الى يافا ــ خبر تعرض يافا لحصار المسلمين ، اتجه نحو أرسوف ــ شمالى يافا ــ فى ١٩ مايو سنة ١١٠٢[٧] .

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(٢) Grousset : op. cit. ; I, p. 230.

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(٤) Albert d'Aix, p. 593.

(٥) Setton : op. cit. vol. I ; p. 365.

(٦) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ & Foucher de Chartres ; p. 402

(٧) Albert d'Aix, p. 595.

وسرعان ما بدأت عملية تجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الفاطميين ، فى حين استطاع بلدوين أن يدخل يافا عن طريق البحر ، ولحقت به كثير من الامدادات الصليبية[١] . وشاءت الصدف أن تصل الى ميناء يافا فى أواخر شهر مايو مائتى سفينة ، تحمل عددا كبيرا من الجند والحجاج الانجليز ، وشقت هذه السفن طريقها الى الميناء مخترقة حصار الأسطول الفاطمى ، وبذلك حصل بلدوين فى يافا على ما كان يلزمه من معونة عاجلة . وفى ٢٧ مايو سنة ١١٠٢ خرج بلدوين من يافا على رأس قواته لمهاجمة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة ؛ وما هى الا بضعة ساعات حتى نجح الصليبيون — بفضـــل تنظيمهم — فى انزال الهزيمة بالجموع الفاطمية التى ولت الأدبار نحو عسقلان[٢] .

ويروى ابن الأثير أنه عندما سمع الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالى أسرع بارسال حملتين ، احداهما برية تألفت من أربعة آلاف فارس تحت قيادة المملوك تاج العجم ، والأخرى بحرية برئاسة القاضى ابن قادوس[٣] . ولكن الشىء الذى كان يفتقده الفاطميون عندئذ لم يكن كثرة الرجال وانما روح النظام والتعاون واحكام الخطط الحربية ؛ اذ رفض تاج العجم معاونة ابن قادوس ، وقال له : « ما يمكننى أن أنزل اليك الا بأمر الأفضل . ولم يحضر عنده ولا أعانه . فأرسل القادوس الى قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوما ، واستدعى تاج العجم فلم يأته ، ولا أرسل رجلا »[٤] . وهكذا آثرت الجيوش الفاطمية عقب هزيمتها أمام يافا الانسحاب ، وخاصة بعد أن وصلت الى الصليبيين نجدات قوية . وفى وسط تلك المحنة ، طلب الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المساعدة ضد الصليبيين ، ولكن دقاق « اعتذر عن ذلك ولم يحضر »[٥] . وفى هذا ما يعطينا فكرة عن مدى ما كان بين حكام دمشق وحكام مصر عندئذ بسبب الخلاف المذهبى .

---

(١) Michaud : op. cit: II, p. 30.

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(٣) Foucher de Chartres, p.p. 404 - 405 & Guillaume de Tyr, p. 435.

(٤) المرجع السابق .

(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر ، حوادث ٤٩٦ هـ . (Rec. Hist. Or. p. 464).

ولا شك فى أن هذه الاشتباكات كشفت للصليبيين عن حقيقة أمر الدولة الفاطمية ومدى انحلالها فى ذلك الوقت ، الأمر الذى جعل الصليبيين يطمعون فى الاستيلاء على بقية موانى فلسطين العربية — مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت — وكلها كانت تابعة للفاطميين[١] . حقيقة ان سيطرة الفاطميين على هذه الموانى صارت شكلية ؛ ولكن من يدرى ، فربما صارت سيطرتهم فعلية فى المستقبل القريب ، وعندئذ يمكن أن يستغلها الفاطميون فى طعن مملكة بيت المقدس فى الصميم عن طريق قطع الشريان الذى يربطها بالغرب الأوربى . ومثال ذلك ما حدث فى شتاء سنة ١١٠٢ عندما جنحت على شاطىء الشام بعض سفن تحمل حجاجا عائدين الى الغرب الأوربى ، فأسرت السلطات الفاطمية فى صيدا وعكا وعسقلان من بها من حجاج ، وبيع معظمهم فى أسواق الرقيق بالقاهرة[٢] ، لذلك شرع الملك بلدوين الأول يحاصر عكا فى ربيع سنة ١١٠٣ « وضيق عليها وكاد يأخذها » . ولكن عكا — كما هو معروف عنها فى جميع عصور التاريخ — من أحصن موانى الشام . ولم تلبث أن وصلتها «النجدات من سائر السواحل» ؛ وجاءت اليها السفن الفاطمية من صور وصيدا ، الأمر الذى جعل الملك بلدوين يرفع الحصار عن عكا لافتقاره الى القوة البحرية . وفى ربيع سنة ١١٠٤ وصلت الى الشام عمارة جنوية تتألف من عدد كبير من السفن ، فاستعان بها الملك بلدوين فى مهاجمة عكا فى أواخر مايو سنة ١١٠٤ . وقد دافع عن عكا حاكمها الفاطمى — زهر الدولة الجيوشى[٣] — الذى تقول عنه المراجع أنه « قاتل حتى عجز » . ولكنه لم يقو على مقاومة الحصار المحكم الذى فرضه الصليبيون على عكا من ناحيتى البر والبحر ، فاضطر الى التسليم « وملك الفرنج البلد بالسيف قهرا »[٤] .

وبسقوط عكا حرم الأسطول الفاطمى من أهم قواعده بالشام ، وصارت للصليبيين السيادة على شواطىء فلسطين . ولا شك فى أن خسارة المسلمين كانت فادحة بضياع عكا . ويبدو ذلك فيما أظهره المؤرخون المسلمون من أسف

(١) Grousset : op. cit. I, p. 239.

(٢) Albert d'Aix ; p.p. 600 - 601.

(٣) اسمه بنا ، ويلقب بالجيوشى نسبة الى ملك الجيوش الأفضل .

(٤) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٧ هـ ؛ قارن رواية ابن الأثير بما ذكره أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ١٨٨

عميق لعجز الفاطميين عن حماية موانى الشام التى أخذت تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدى الصليبيين . من ذلك ما يقوله أبو المحاسن عن الخليفة الآمر الفاطمى أنه كان « يتناهى فى العظمة ويتقاعد عن الجهاد ... وكان فيه تهاون فى أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها فى أيامه ... ولم ينهض لقتال الفرنج البتة ؛ وان كان أرسل مع الأسطول عسكر فهو كلا شىء[١] » .

أما عن الوزير الأفضل فيبدو أنه لم يتخل عن فكرة ارسال حملة كبيرة من مصر لطرد الصليبيين من الشام . وكان أن قام بمحاولة أخيرة فى هذا الصدد ، فجمع فى صيف سنة ١١٠٥ بعسقلان جيشا كبيرا بلغ خمسة آلاف جندى من المصريين والسودان فضلا عن الفرسان العرب ؛ ووضع ذلك الجيش تحت امرة أحد أبنائه وهو سناء الملك حسين[٢] . وفى الوقت نفسه استعد الأسطول الفاطمى لمساندة الجيش من ناحية البحر . ولم يتردد الوزير الأفضل فى طلب المساعدة من سلاجقة دمشق السنيين ، على الرغم من الخصومة المذهبية بينهم وبين الفاطميين الشيعة ، فعرض على طغتكين — الذى آلت اليه السلطة فى دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدين تتش فى صيف ١١٠٤ — أن يساعده فى قتال العدو المشترك . وفعلا استجاب طغتكين لنداء الفاطميين ، فأرسل اليهم أحد رجاله — واسمه أصبهبد صباوا — ومعه ألف وثلثمائة فارس . وربما كانت هذه أول محاولة عملية يشترك فيها المسلمون فى مصر والشام ضد الصليبيين[٣] . ولكن حدث فى المعركة التى دارت بين الصليبيين والمسلمين فى أواخر أغسطس سنة ١١٠٥ أن أظهر الصليبيون تفوقهم مرة أخرى ، فانتهت المعركة بتمزيق القوات الفاطمية شر ممزق وفرار الدماشقة الذين أرسلهم طغتكين . أما الأسطول الفاطمى فقد قفل راجعا الى صور وصيدا وطرابلس ، ولكنه تعرض بعد ذلك — أثناء عودته الى مصر — لعاصفة هوجاء تقذفت نحو عشرين سفينة من سفنه على الموانى الصليبية ، فأسرها الصليبيون[٤] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ، جـ ٥ ، ص ١٧٨

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

(٣) المرجع السابق ؛ حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٤) Foucher de Chartres ; p. 414.

والواقع ان حملة الفاطميين سنة ١١٠٥ كانت آخر محاولة كبرى قاموا بها ضد الصليبيين فى ذلك الدور . هذا وان ظل الفاطميون يهددون الصليبيين بين حين وآخر ، ولكن فى نطاق محدود . وكانت الهجمات الفاطمية تنبعث دائما من مدينة عسقلان ، ومن هذا المركز أغارت القوات الفاطمية سنة ١١٠٦ على قافلة من الحجاج الصليبيين بين يافا وأرسوف ، كما أغارت سنة ١١٠٧ على الخليل . بل ان الفاطميين وصلوا سنة ١١١٠ الى أسوار بيت المقدس ذاتها[١] .

وفى تلك الأثناء لم يتخل بلدوين ملك بيت المقدس عن فكرة الاستيلاء على بقية المدن الساحلية التى ما زالت بأيدى الفاطميين ، وهى عسقلان فى الجنوب وصورا وصيدا وبيروت فى الشمال . وقد بدأ بلدوين بمهاجمة صيدا سنة ١١٠٦ ، ثم انصرف عنها بعد قليل عندما تعهد له حاكمها بدفع مبلغ كبير من المال[٢] . ولم تكد تمض سنتان حتى وصل الى شاطىء فلسطين ـ فى أغسطس سنة ١١٠٨ ـ عدد كبير من السفن الوافدة من ايطاليا ، فأراد بلدوين الأول أن يستغل تلك القوة فى الاستيلاء على صيدا من الفاطميين ، وشرع فعلا فى حصارها برا وبحرا . ولكن الأسطول الفاطمى أسرع الى مياه صيدا ، واستطاع أن ينزل الهزيمة بالسفن الايطالية[٣] . وكان ذلك فى الوقت الذى طلب حاكم صيدا من طغتكين امداده بقوة برية تساعده على دفع الصليبيين مقابل تعهده بدفع مبلغ كبير من المال ، فلبى طغتكين النداء ، وأرسل له نجدة كبيرة قدرها المؤرخون بخمسة عشر ألف مقاتل ، وعندئذ انسحب بلدوين الى عكا . ولم يكد بلدوين يسحب قواته حتى امتنع أهل صيدا عن دفع المبلغ الذى تعهدوا بدفعه لحاكم دمشق ، بل لقد رفضوا أن يسمحوا للدماشقة بدخول المدينة خوفا من أن تكون هناك مؤامرة من جانب طغتكين للاستيلاء على صيدا . وعندئذ هدد سلاجقة دمشق باستدعاء بلدوين لمهاجمة صيدا ، فرضخ صاحبها ، ودفع مبلغا يقرب من ثلث الثمن المتفق عليه[٤] .

وفى تلك الأثناء شاءت الظروف أن تلعب الدولة الفاطمية دورا فى تاريخ مدينة طرابلس ، وان كانت الأحداث قد أثبتت أن الفاطميين كانوا أضعف من

---

(١) Runciman : op. cit., II ; p.p. 90 - 91.

(٢) Albert d'Aix, p.p. 632 - 634.

(٣) Grousset : op. cit. ; I, p. 253.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٢ & Albert d'Aix ; p.p. 654-655

النهوض بمهمة الجهاد وحماية مصالح المسلمين فى فلسطين . ذلك أنه عندما اشتد حصار الصليبيين على طرابلس اضطر صاحبها فخر الملك بن عمار الى السفر فى ربيع سنة ١١٠٨ الى بغـــداد لطلب النجدة من الخليفة العبـــاسى وسلطان السلاجقة(١) . ولكن أهل طرابلس ـــ عندما ضاق بهم الحال فى غياب ابن عمار ـــ أرسلوا الى الوزير الأفضل الجمالى بالقاهرة يطلبون حماية الدولة الفاطمية لهم ، ويعرضون عليه تسليم المدينة له ، ليتولى الفاطميون الدفاع عنها . وكان أن استجاب الأفضل لتلك الدعوة ، فأرسل اليهم شرف الدولة ابن أبى الطيب واليا سنة ١١٠٨ « ومعه الغلة وغيرها مما يحتاجون اليه أهل البلاد فى الحصار . فلما سار فيها قبض على جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه ، وأخذ ما وجده من آلاته وذخائره وغير ذلك ، وحمل الجميع الى مصر فى البحر » . وبذلك خرجت طرابلس من قبضة بنى عمار وعادت الى الفاطميين مرة أخرى(٢) .

ولكن الفاطميين كانوا فى حقيقة الأمر أضعف من أن يستطيعوا الدفاع عن طرابلس ، وخاصة بعد أن أتت امدادات برية وبحرية من الغرب مكنت الصليبيين من احكام حصارهم عليها . ولو كانت الحكومة الفاطمية قد اتخذت عندئذ اجراء سريعا لتموين طرابلس وتزويدها بالرجال والسلاح ، لأمكن للمدينة أن تقاوم ؛ ولكن الأسطول الذى أعدته القاهرة لنجدة طرابلس ظل منتظرا فى موانى الدلتا بسبب الخلاف بين قادته ، فلما أزمع الحركة صادفته رياح مضادة عرقلت سيره . وفى تلك الأثناء ساءت أحوال أهل طرابلس « وســـقط فى أيديهم ، وذلت نفوسهم ، وزادهم ضعفا تأخر الأسطول المصرى عليهم بالنجدة والميرة »(٣) . وأخيرا أبحرت العمارة الفاطمية قاصدة طرابلس بعد فوات الأوان ؛ ولم تكد تصل الى مياه طرابلس ذاتها « حتى وجـــدوا البلد قد أخذت ، فعادوا كما هم !! »(٤) وهنا يقف المؤرخ أبو المحاسن وقفة قصيرة ليلقى على الفاطميين تبعة سقوط طرابلس ، ويلومهم لعدم اكتراثهم بمحاربة الصليبيين ؛ ثم يحدد مظاهر عدم الاكتراث بالدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور : أولها : تقاعدهم عن المسير تلك المدة الطويلة . وثانيها : ضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٥
(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (p. 536)
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .
(٤) المرجع السابق .

مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة ، لدفع الفرنج من البحر عن البلد . وثالثها: عدم خروج الوزير الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية . « هذا مع قوتهم (الفاطميين) فى العساكر والأموال والأسلحة »[١] . ومهما يكن من أمر ، فان الصليبيين دخلوا طرابلس فى ١٢ يوليو سنة ١١٠٩ ، وسمحوا للقائد الفاطمى بالخروج سالما مع فريق من رجاله[٢] .

وزاد من وقع سقوط طرابلس ، أن بلدوين الأول أخذ يهاجم بيروت سنة ١١١٠ . وقد استمر حصار بيروت بضعة أشهر ، حاول الفاطميون خلالها ارسال نجدات اليها عن طريق البحر ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . وعندما يئس صاحب بيروت من وصول مساعدات اليه ، فر فى سفينة ليلا الى جزيرة قبرص ، وعندئذ اضطر أهل بيروت الى الاستسلام للصليبيين الذين أحدثوا مذبحة رهيبة بين المسلمين داخـــل بيروت[٣] . وبعد قليل وصلت الى عكا قوة من الصليبيين النرويجيين ، فاستغل بلدوين تلك القوة فى القيام بمحاولة جديدة للاستيلاء على صيدا . وعندما اشتد حصار الصليبيين على صيدا من ناحيتى البر والبحر ، أدرك قاضيها وشيوخها أنه لا أمل فى النجاة الا بالتسليم ، فسلموا المدينة للملك بلدوين فى ديسمبر سنة ١١١٠[٤] .

ولم تلبث مدينة عسقلان هى الأخرى ــ وهى القاعدة الحربية الرئيسية للفاطميين فى فلسطين ــ أن أوشكت أن تدخل تحت حماية الصليبيين . ذلك أن حاكم عسقلان ــ شمس الخلافة ــ أرسل الى بلدوين الأول « مالا وعروضا » طالبا عقد اتفاقية دفاعية بين الطرفين ، مع استعداده لدفع الجزية للصليبيين[٥] . وكان أن انزعج الوزير الأفضل لتلك الأخبار ، لأن عسقلان بالذات كانت بالنسبة للدولة الفاطمية مفتاح فلسطين وبالنسبة للصليبيين مفتاح مصر ، لذلك أرسل الأفضل حملة تحت ستار محاربة الصليبيين ، وأعطى تعليمات سرية لقائد الحملة بعزل شمس الخلافة ويتولى هو حكم المدينة بدله[٦] . على أن شمس الخلافة

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٧٩

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٧ ــ ١٦٨

Foucher de Charters, p. 421.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ & Guillaume de Tyr, p. 478.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ & Albert d'Aix, p.p. 679—680.

أوجس خيفة من تلك الحملة ، فرفض أن يفتح لها أبواب عسقلان ، كما رفض أن يخرج لمقابلة قائد الحملة ، فعادت أدراجها الى القاهرة . ويروى ابن الأثير أن شمس الخلافة أخذ يتشكك فيمن حوله من العرب « فأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جندا » ؛ الأمر الذى أساء الى شعور أهل عسقلان ، فثاروا على شمس الخلافة وقتلوه ونهبوا داره سنة ١١١١ ؛ وفى الحال أرسلت القاهرة حامية قوية أعادت الأمور الى نصابها فى عسقلان[١] . وعندما سمع الملك بلدوين بخبر تلك الثورة ضد شمس الخلافة ، أسرع الى عسقلان ، ولكنه وصلها وقد انتهى كل شىء ، فعاد بخفى حنين « وبذلك قدر لعسقلان أن تظل أربعين سنة أخرى شوكة فى حلق الصليبيين »[٢] .

أما مدينة صور ، فكانت ــ مثل عسقلان ــ من المدن التى استعصت على بلدوين الأول لأنها اعتمدت دائما على الخلافة الفاطمية وتلقت منها الامدادات . ولكن أهل صور لم يلبثوا أن أحسوا بحرج موقفهم أمام الاغارات الصليبية المتكررة من ناحية ، وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم فى كثير من الحالات من ناحية أخرى ؛ ولذلك اتجهوا نحو طغتكين أتابك دمشق طالبين حمايته بوصفه اكبر قوة اسلامية قريبة منهم . ويشير ابن القلانسى الى أن الوزير الأفضل الفاطمى كان مشغولا عندئذ بوباء خطير ألم بمصر[٣] . وكان أن استجاب طغتكين الى ما طلبوا ، فأمد أهل صور ببضع مئين من الدماشقة وعين عليهم واليا ــ اسمه مسعود ــ وفرق عليهم المؤن والأموال « فطابت نفوس أهل البلد »[٤] .

ويبدو أن الحصار الذى فرضه بلدوين الأول على صور فى نوفمبر ١١١١ لم يكن تاما لعدم وجود أسطول صيلبى قوى يحبس المدينة من ناحية البحر ، مثلما كان الحال فى حصار بيروت وصيدا . حقيقة ان بعض السفن البيزنطية وصلت أمام صور ، ولكن هذه السفن كانت على درجة من القلة والضعف حالت دون قيامها بعمل حاسم . وفى نفس الوقت لم يتقاعس الوزير الأفضل الفاطمى فى شحن صور بالذخيرة والميرة ، مما مكن أهلها من الثبات داخلها ، فى الوقت الذى

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٤ هـ .
(٢) **Runciman : op. cit., II, p. 95.**
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨١
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

كان طغتكين يساعدهم خارجها[١] . وهكذا اضطر بلدوين الأول الى رفع الحصار والعودة من حيث أتى فى ابريل سنة ١١١٢ . ولما طلب أهل صور من طغتكين الاشتراك فى حكمهم وحمايتهم ، ذهب اليهم وتسلم البلد ، وقال لهم « أنا مافعلت ما فعلت الا لله تعالى ، لا رغبة فى حصن ومال ؛ ومتى دهمكم عدو جئتكم بنفسى ورجالى » . ثم استقر الرأى بين الأفضل الفاطمى وطغتكين على أن تقوم حامية دمشقية فى صور الى جانب الحامية الفاطمية ، ويتولى القيادة العامة للقوات المشتركة قائد من قبل طغتكين ، فى حين تظل الخطبة والسكة للفاطميين [٢] .

والواقع ان ما حدث فى صور من ناحية وفى عسقلان من ناحية أخرى ، انما يدل على بداية صحوة اسلامية فى جنوب بلاد الشام ، هى فى حقيقة الأمر جزؤ من حركة الافاقة الشاملة التى أخذ العالم الاسلامى يمر بها فى النصف الأول من القرن الثانى عشر . ولم تلبث أن امتدت هذه الصحوة الى الدولة الفاطمية ذاتها ، فتقدم جيش فاطمى من عسقلان سنة ١١١٣ لمهاجمة بيت المقدس ، ووصل الفاطميون الى أسوار المدينة فعلا ، ثم عادوا من حيث أتوا لاهتمام الصليبيين بتحصين المدينة[٣] . كذلك خرجت قوة فاطمية من عسقلان سنة ١١١٥ لمهاجمة الصليبيين فى يافا ، ولكنها عادت دون أن تحقق شيئا[٤] . أما فى مصر ، فقد أدت سياسة الملك بلدوين الأول الى تحريك شعور المصريين وتنبيههم الى الخطر الذى يتهددهم فى بلادهم من جانب الصليبيين . ذلك أن بلدوين الأول عمل على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقى ، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة ، وهى المنطقة المعروفة باسم وادى عربة . ومن الواضح أنه مع مالهذا المشروع من أهمية دفاعية ، فانه يمكن الصليبيين أيضا من عزل مصر عن بقية العالم الاسلامى فى الشرق ، وقطع الطريق البرى بينها وبين الشام والعراق والحجاز[٥] .

وقد بدأ بلدوين الأول بالسيطرة على وادى عربة جنوبى البحر الميت ، ثم شيد سنة ١١١٥ حصن الشوبك ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ١٢ مجلد ٣ ص ٢٦٨
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨١ — ١٨٢
(٣) Foucher de Chartes ; p.p. 426—427.
(٤) Guillaume de Tyr ; p.p. 494—495.
(٥) Grousset : L'Empire du Levant ; p. 213.

وادي عربة بأجمعه[١] . وفي العام التالى — ١١١٦ — خرج بلدوين في حملة أخرى ، ومضى حتى أيله علي ساحل خليج العقبة ، حيث فر الأهالى من وجهه . وقد بنى بلدوين في أيله قلعة حصينة للتحكم في الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام[٢] ؛ كما شيد قلعة أخرى في جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة في خليج العقبة . وبذلك تمكن الصليبيون من الاشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة ، ولم يبق أمام بلدوين سوى أن يهاجم الفاطميين في عقر دارهم ليشعرهم بقوته . وفي مارس سنة ١١١٨ خرج بلدوين على رأس قوات غير كبيرة ، وعبر الصحراء من غزه الى العريش حتي وصل الى الفرما واستولى عليها وأحرق جامعها ومساجدها[٣] . ويروى المؤرخ ابن الأثير أن الملك بلدوين وصل الى مدينة تنيس جنوبى بحيرة المنزلة ، كما يشير بعض المؤرخين الصليبيين الى أنه وصل الى مصب نهر النيل فعلا ؛ ولكنه لم يستطع أن يوغل في الأراضي المصرية أكثر من ذلك لصغر قوته ثم لمرضه المفاجيء . وسواء جاء ذلك المرض لأنه سبح في النيـــل عند تنيس « فاتنفض جرح كان به » على قول ابن الأثير ؛ أو أنه مرض بسبب أكله سمك من بحيرة المنزلة — علي قول أبي المحاسن — ؛ فالمتفق عليه هو أن أصحابه شقوا بطنه ، وصبروه — أى حنطوه — ورموا أحشاءه في المكان الذي نسب اليه وما زال يعرف حتى اليوم باسم سبخة البردويل — قرب بور سعيد الحالية — وهو المكان الذى اعتاد الناس أن يرجموه حتى أيام أبي المحاسن في عصر المماليك[٤] .

ويبدو أن جرأة الصليبيين في مهاجمة مصر ، كان لها أثرها في ايقاظ الدولة الفاطمية من سباتها وجعلها أكثر احساسا بالخطر المباشر الذى يتهددها ، فشرع الوزير الأفضل في القيام بمحاولة جديدة يردبها على العدوان الصليبى ، وبادر بارسال جيوشه الى عسقلان وأسطوله الى صور . وفي ذلك الدور تمت بصورة أوضح المعجزة الكبرى ، وهى تحالف الدماشقة السنيين مع الفاطميين الشيعة ضد الصليبيين ؛ فتم الاتصال بين الوزير الأفضل في مصر وطغتكين في دمشق على القيام بعمل مشترك ضد العدو المشترك ، ووافق الأفضل على أن يضع

---

(١) Runciman : op. cit. ; I, p.p. 97—98.

(٢) Setton : op. cit. ; I, p. 406.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ١٧١

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ Guillaume de Tyr ; p. 508.

جيوشه فى عسقلان تحت قيادة طغتكين[١] . ولم يلبث أن حضر طغتكين بنفسه الى عسقلان وعندئذ أخبره قائد الجيش الفاطمى بأن لديه تعليمات « بالوقوف عند رأى طغتكين والتصرف على ما يحكم به »[٢] . وكان أن أحس الملك بلدوين الثانى — ملك بيت المقدس الجديد (١١١٨ — ١١٣١) — بخطورة الموقف ، فحاول عزل طغتكين عن الأفضل ، وعرض على الأول عقد هدنة ، ولكن طغتكين رفض عرضه . على أن الموقف لم يؤد الى صدام بين الطرفين ، اذ رابط كل من الصليبيين والمسلمين مدة شهرين أو ثلاثة ، ثم انصرف كل فريق من حيث أتى[٣] .

ويلمس المتتبع لتـاريخ الدولة الفاطمية فى ذلك الدور فتورا ملحوظا فى مواجهة الصليبيين ومقاتلتهم . ويبدو خلال ذلك اتجاه قوى فى المعسكر الفاطمى لمهادنة الصليبيين ، وعدم الجد فى محاولة طردهم من مواقعهم فى جنوب بلاد الشام . وظهر هذا الاتجاه قويا بين المتطرفين من شيعة البيت الفاطمى ، وهم الذين رأوا فى بقاء الصليبيين ضمانا لحماية ملك الفاطميين من أطماع السلاجقة[٤] . وزاد من سلبية الدولة الفاطمية فى ذلك الدور أن الوزير الأفضل أخذ يقترب من نهايته. والحق ان الوزير الأفضل — مع كونه أرمنى الأصل — الا أنه لم يأل جهدا فى مقاتلة الصليبيين ، كما احتضن أنصار حركة الجهاد وقربهم منه[٥] . وسواء ابتغى الأفضل من سياسته هذه الجهاد لذاته ، أو اتخذ تلك السياسة أداة للحد من نشاط ونفوذ الخليفة الآمر الفاطمى (١١٠١ — ١١٣٠) — وهو الخليفة الطموح الذى أراد الحد من نفوذ الوزراء العظام — فالذى يعنينا هو أن الوزير الأفضل اغتيل فى أواخر سنة ١١٢١ ، وأن هذا الاغتيال مرتبط بسياسته السابقة. ويقال فى سبب مقتل الوزير الأفضل أنه سمح لطغتكين — وهو أتابك دمشق السنى — بارسال قوة للمشاركة فى الدفاع عن صور ، الأمر الذى أثار غلاة

---

(١) المقريزى : المواعظ ، جـ ١ ، ص ٣٤٢

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ .

(٣) Foucher de Chartres ; p.p. 617—619.

(٤) المقريزى : المواعظ ، جـ ٢ ، ص ٣١٠ .
جمال الدين بن طاهر : أخبار الدول المنقطعة ، ورقة ٧٤ ب

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ص ٤٧٩ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٢٣١ — ٢٣٢

الشيعة فى مصر ، مما أدى الى مقتل الأفضل بيد بعض الباطنية الذين كانوا « يكرهون الأفضل لأسباب منها تضييقه على امامهم (الخليفة الفاطمى) »[١] .

على أن الخليفة الآمر الفاطمى كان لا يستطيع أن يكشف عن سياسته تجاه الصليبيين بعد مقتل الأفضل مباشرة ، حرصا على مكانته فى العالم الاسلامى ، ولذلك رأى أن يسترضى الرأى العام فأنفذ حملة كبيرة من عسقلان لحصار يافا برا سنة ١١٢٣ ، فى الوقت الذى خرج الاسطول الفاطمى لمهاجمتها من ناحية البحر[٢] . وكانت الحامية فى يافا صغيرة ، مما جعلها توشك على الاستسلام ، ولكن وصول نجدة صليبية جعل الفاطميين يفكرون فى الانسحاب الى يبنا ، على الطريق بين يافا وعسقلان . وفى المعركة التى دارت بين الفاطميين والصليبيين عند يبنا فى أواخر مايو سنة ١١٢٣ ، انهزم الفاطميون وولوا الأدبار ، واقتفى الصليبيون أثرهم ، يقتلون ويأسرون وينهبون ما يصل الى أيديهم[٣] .

ولم تلبث أن انكشفت بعد قليل سياسة الخليفة الآمر الفاطمى فى مسالة الصليبيين ، فتخلص الفاطميون من القوات الدمشقية السنية التى كانت تشترك معهم فى الدفاع عن صور ، كما تخلصوا من مندوب طغتكين فى تلك المدينة . ذلك أن الخليفة الآمر أرسل أسطولا الى صور سنة ١١٢٢ لعزل الحاكم الدمشقى مسعود ، فقبض عليه وأحضر الى القاهرة . وقد انتقد المؤرخ أبو المحاسن هذا التصرف من جانب الفاطميين ، لأنه حرم صور من الرجل القوى الذى « فعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة »[٤] . وهكذا ساءت أحوال صور وتعرضت للاهمال من جانب الفاطميين . ويتضح من المقارنة بين ما ذكره المقريزى عن كمية الميرة التى كانت تصل سنويا الى صور أيام الوزير الأفضل ، وبين ما ذكره ابن ميسر عن الكمية التى كانت تصلها على أيام الوزير ابن البطائحى خليفة الأفضل ، أن الدولة الفاطمية بعد مقتل الأفضل انقصت المعونة التى كانت ترسلها الى صور الى الخمس[٥] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٥ هـ .

(٢) Setton : op. cit. ; I, p. 421.

(٣) Foucher de Chartres ; p.p. 450—451.

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٨٢

(٥) المقريزى : المواعظ ، جـ ٢ ص ٣٤٤ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ، جـ ٢ ص ٦٣

ومهما يكن من أمر ، فان تلك الأوضاع أتاحت فرصة طيبة للصليبيين ليستغلوا الموقف السيء الذى أمست فيه صور من ناحية ، والشقاق بين دمشق والقاهرة من ناحية أخرى « فتحرك طمعهم فيها ، وحدثوا نفوسهم بتملكها ، وشرعوا فى الجمع والتأهب للنزول عليها والمضايقة لها »(١) . ولما أحس أهل صور بشدة وطأة الصليبيين عليهم ، أرسلوا الى الخليفة الآمر يشكون اليه ، فأحس الخليفة بعجزه ، واضطر مرة أخرى الى أن يحيلهم الى طغتكين ، اذ رد عليهم قائلا «قد رددنا أمرها الى ظهير الدين طغتكين ليتولى حمايتها والذب عنها»(٢) . ومرة أخرى عاد طغتكين صاحب دمشق يعزز حامية صور « ويرتب بها من الجند وغيرهم ما ظن أن فيه الكفاية »(٣) .

على أن هذه الجهود لم تفلح فى انقاذ صور . ذلك أن البندقية كانت قد أعدت حملة صليبية ضخمة من ثلثمائة سفينة تحمل خمسة عشر ألف جندى لمساعدة الصليبيين بالشام(٤) . وكان أن وصل الأسطول البندقى الى الشام فى مايو سنة ١١٢٣ ، فاتجه الى عسقلان حيث دمر الأسطول الفاطمى هناك ، ثم أغار البنادقة على الشاطىء الجنوبى لفلسطين حتى العريش ، وفى طريق عودتهم الى عكا أسروا اسطولا تجاريا اسلاميا من عشر سفن محملة بالبضائع(٥) . ولاشك فى أن تدمير الأسطول الفاطمى فى مياه فلسطين أعطى الصليبيين حرية العمل ضد المعاقل والموانى الفاطمية القليلة التى ما زالت باقية على ساحل الشام ، وأهمها صور وعسقلان . ولم تفلح جهود القوى الاسلامية ، المتباينة فى الدفاع عن صور(٦) ، ولم تستطع صور نفسها الصمود طويلا رغم حصانتها القوية(٧) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٨ هـ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٨٢ — ١٨٣
(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٨ هـ .
(٤) Heyd : Hist. du Commerce, I, p.p. 142—143.
(٥) Foucher de Chartres ; p.p. 452—453.
(٦) عن هذه الجهود انظر : ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 642)
(٧) وصف الرحالة ابن جبير صور فى عصر الحروب الصليبية بأنها « مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة ، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة » . (رحلة ابن جبير ص ٢٧٧ — طبعة بيروت) .

وأخيرا اضطرت صور الى التسليم فى أوائل يوليو سنة ١١٢٤ « بعد أن أشرف أهلها على الهلاك[١] » .

ومرة أخرى ارتفع صوت خافت من مصر يتهم الخليفة الآمر الفاطمى بأنه فرط فى صور ، ويطالب الخلافة الفاطمية باتخاذ سياسة ايجابية فى جهاد الصليبيين بالشام . وزاد من الانقسام الداخلى فى الدولة الفاطمية أن الخليفة الآمر الفاطمى قبض على وزيره ابن البطائحى سنة ١١٢٥ ثم صلبه . ولم يتخذ الخليفة الآمر بعد ابن البطائحى «وزير سيف بل استبد بأموره وباشرها بنفسه[٢] » ، واستعان بالمشيرين من غير المسلمين ، فولاهم مناصب الدولة ، وظهر منهم بهرام الأرمنى الذى « صادر عامة من بالديار المصرية ، من كاتب وحاكم وجندى وعامل وتاجر ، وامتدت يده الى الناس على اختلاف طبقاتهم »[٣] . وكان من الطبيعى أن يجنح مستشارو الدولة الفاطمية من المسيحيين الى مسالمة الصليبيين بالشام . وزاد هذا الاتجاه قوة بعد اغتيال الخليفة الآمر فى خريف سنة ١١٣٠ وقيام ابن عمه الحافظ محله فى الخلافة ، لأن الحافظ هذا كان من أشد المتحمسين لمسالمة الصليبيين ، وقيل أنه أشار بقتل الوزير الأفضل[٤] .

ولم يرض المتحمسون للجهاد عن ذلك الوضع ، فجمعوا صفوفهم بزعامة رضوان بن الولخشى ، وأطلقوا سراح أحمد ابن الوزير الأفضل وعينوه وزيرا فى حفل كبير ، أظهروا فيه حنقهم على البيت الفاطمى وسياسته[٥] . وقد ظهرت استجابة الوزير الجديد لسياسة الجهاد فى خروج الجيوش الفاطمية من عسقلان واغارتها على الصليبيين فى اقليم يافا ، حتى وصلوا الى مشارف أرسوف[٦] . على أن الوزير أحمد بن الأفضل لم يعش طويلا ليواصل سياسته ، وانما اغتيل سنة ١١٣١ بيد يانس ، وهو أمير من أصل أرمنى . ولم يلبث أن دب الخلاف بين يانس هذا الذى تولى الوزارة والخليفة الحافظ الفاطمى ، وهو خلاف تطور

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٥١٨ هـ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ج ٢ ، ص ٧٣

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٩

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٤

(٥) تاريخ ابن الفرات ، ج ٣ ، ص ١٨ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ، ج ٢ ص ٨١

(٦) Guillaume de Tyr, p.p. 627—633.

الى صراع دموى أفاضت المصادر فى شرحه ، وانتهى بموت يانس مسموما قبل أن يمر عام على توليه منصب الوزارة[1] . وفى خلال الحرب الأهلية التى شهدتها الدولة الفاطمية فى العامين التاليين ، برز الأمير بهرام الأرمنى ، فولاه الخليفة الحافظ الفاطمى الوزارة رغم أنه كان يدين بالنصرانية . ولم يدخر الوزير بهرام جهدا فى فتح أبواب مصر أمام بنى جنسه من الأرمن ، فضلا عن أنه شجع سياسة المعايشه السلمية مع الصليبيين بالشام وقاوم أنصار حركة الجهاد[2] . وأثار هذا الوضع المسلمين داخل مصر وخارجها ، فقامت ثورة بزعامة رضوان بن الولخشى الذى خطب فى الناس خطبة بليغة « حرض الناس فيها على الجهاد » . وكان أن فر بهرام فى حين ولى رضوان بن الولخشى الوزارة سنة ١١٣٧[3] .

والحق ان الوزير رضوان بن الولخشى كان من أشد المتحمسين لحركة الجهاد ضد الصليبيين ، فما كان يتولى الوزارة حتى أنشأ ديوانا جديدا أطلق عليه اسم « ديوان الجهاد »[4] . وفى الوقت نفسه آخذ يطارد الأرمن ويقصيهم عن مناصب الدولة ، حتى بلغ به الأمر حد التنديد بالخليفةالحافظ الفاطمى وسياسة الاستكانة التى اتبعها تجاه الصليبيين بالشام . وعندما وجد رضوان بن الولخشى أن الخليفة الحافظ يعمل سرا لتمكين الأرمن من استعادة نفوذهم فى الدولة ، فضلا عن جهود الخليفة فى استثارة عداء بعض طوائف الجيش الفاطمى ضد الوزير ؛ الأمر الذى يؤثر تأثيرا خطيرا على حركة الجهاد التى عزم رضوان بن الولخشى المضى فيها ، فر ابن الولخشى نحو الشمال ليستعين ببطل كبير من أبطال الجهاد وعلم من أعلام الوحدة الاسلامية فى القرن الثانى عشر للميلاد ، هو عماد الدين زنكى.

وكان السلطان محمود السلجوقى قد عين زنكى أتابكا على الموصل سنة ١١٢٧ ، فنظم أمورها ، وشرع يضع أساس خطة متكاملة لجهاد الصليبيين . وقد أدرك زنكى بثاقب بصره أن مثل هذه الخطة لا يمكن أن تنجح الا اذا تم توحيد

---

(١) المقريزى : المواعظ ، جـ ٢ ص ٢٦ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ، جـ ٢ ص ٧٥ — ٧٦

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، جـ ٢ ص ٧٩ ، تاريخ ابن الفرات ، جـ ٣ ص ٦٠

(٣) العينى : عقد الجمان ، جـ ١٦ ق ١ ص ٥٧ ، تاريخ ابن الفرات ، جـ ٣ ص ١٨

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ، جـ ٢ ص ٨٢

القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى ؛ فضم حلب سنة ١١٢٨ ، وبذلك جمع بين الموصل وحلب ، وهما اكبر مركزين للمسلمين فى شمال العراق والشام[١] . وفى الوقت الذى كان زنكى يسعى جاهدا لضم مدينة دمشق ، حتى تمتد الجبهة الاسلامية المتحدة الى أواسط الشام ؛ أرسل اليه الوزير الفاطمى رضوان بن الولخشى طالبا التضامن معه فى جهاد الصليبيين ، والاستعانة به ضد الخلافة الفاطمية الشيعية المتقاعسة عن الجهاد .

ويحكى لنا أسامة بن منقذ ـــ وهو شاهد عيان ساهم بنفسه فى أحداث تلك الفترة ـــ ما كان من أمر الوزير رضوان ، فيقول أنه اتجه الى صلخد (صرخد) فى الوقت الذى كان زنكى يحاصر بعلبك . وعندما تم الاتفاق بين زنكى والوزير الفاطمى على اللقاء عند بعلبك ، ذعر معين الدين أنر صاحب النفوذ فى دمشق ، واستدعى أسامة بن منقذ وقال له « هذا الرجل (رضوان) ان انضاف الى أتابك (زنكى) دخل علينا منه ضرر كبير !! »[٢] وكان أن قصد أسامة بن منقذ الوزير رضوان بن الولخشى ، ومازال يثنيه عن عزمه حتى عدل ابن الولخشى عن مقابلة زنكى ، واكتفى بأن جهز جيشا كبيرا عاد به الى مصر فى سبتمبر سنة ١١٣٩ ليحارب جند الخليفة الفاطمى قرب باب الفتوح . غير أنه لم يلبث أن أرغم على المسير الى الوجه القبلى ، حيث طارده الأمير أبو الفضل بن مصال ، وانتهى الأمر بحبسه فى القصر ثم قتله بعد ذلك[٣] . وهكذا باء بالفشل مشروع التعاون بين زنكى وابن الولخشى للقضاء على الدولة الفاطمية أولا ثم مواصلة الجهاد ضد الصليبيين بعد ذلك ، فدخلت الدولة الفاطمية مرة أخرى دور ركود واضح .

والواقع ان حركة الوحدة فى العالم الاسلامى تمهيدا للجهاد كان اتجاهها فى ذلك الدور من الشمال لا من الجنوب ، فاستولى زنكى على الرها سنة ١١٤٤ ، ثم خلفه ابنه نور الدين محمود ليستأنف سياسته ويستولى على دمشق سنة ١١٥٤ ، وبذلك جاء دور مصر لتمتد الجبهة الاسلامية المتحدة من الفرات الى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٣٤ ـــ ٤٠ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٣٧ ـــ ٣٨

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ٣٠ ـــ ٣٢

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطميـــة ، ص ١٧٨ (الطبعة الثانية) .

النيل[١] . وفى تلك الأثناء لم يغفل الصليبيون أمر مصر بعد أن ظهر للعيان مدى ضعف الخلافة الفاطمية وعجزها عن الاحتفاظ بكيانها . وهنا نلاحظ أن الاتجاه الطبيعى لتوسع الصليبيين فى الربع الأول من القرن الثانى عشر كان فى الشمال الشرقى ، حيث لم توجد قوة اسلامية كبيرة عند أطراف الفرات تحول دون ذلك التوسع . ولكن ظهور قوة الزنكيين فى شمال العراق والشام ، جعلت حركة التوسع الصليبى تتخذ منذ منتصف ذلك القرن اتجاها آخر ، هو الاتجاه الجنوبى الغربى ، أى على حساب مصر والفاطميين[٢] .

على أن غزو مصر — وهى السياسة التى اتخذت طابعا عمليا واسع النطاق على يد عمورى الأول فيما بعد — كان لابد من التمهيد له بالاستيلاء على عسقلان وهى القاعدة الوحيدة التى بقيت للفاطميين فى فلسطين . وهذا ما قام به الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، بعد أن تم تتويجه وأخذ يفكر فى القيام بعمل حربى هام يضفى عليه وعلى حكمه هالة من المجد والأهمية فى نظر معاصريه[٣] .

وقد مهد بلدوين الثالث لغزو عسقلان بعدة ترتيبات هامة ، حربية وسياسية . ففى الجانب الحربى بدأ فى أواخر سنة ١١٤٩ وأوائل سنة ١١٥٠ باعادة تحصين غزة ، فهدم أسوارها القديمة ، وبنى لها سورا جديدا ، كما شيد بها قلعة قوية عهد بحراستها الى الداوية[٤] . وفى الجانب السياسى كان لابد لبلدوين الثالث قبل أن يشرع فى مهاجمة عسقلان من أن يؤمن ظهر مملكة بيت المقدس من جانب دمشق . ولم يكن التحالف بين دمشق وبيت المقدس أمراً صعب الحدوث فى ذلك الدور ضد العدو المشترك نور الدين محمود ، الذى أخذ يسعى لتحقيق الجبهة الاسلامية المتحدة ويهاجم دمشق مرة بعد أخرى لضمها الى تلك الجبهة . وفى ذلك يقول ابن القلانسى ان الدماشقة « عاهدوا الافرنج أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من المسلمين» . فى حين يقول أبو شامة ان حكام دمشق « راسلوا الفرنج بخبره (نور الدين) وقرروا معهم الانجاد عليه »[٥] . وهكذا

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٦٤

(٢) Michaud : op. cit. ; II ; p. 217.

(٣) Setton : op. cit. ; I, p. 536.

(٤) Guillaume de Tyr, p. 778.

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٩ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٧٠

مكنت الأوضاع السائدة فى العالم الاسلامى بلدوين الثالث ملك بيت المقدس من أن يوجه جهوده ضد الفاطميين فى عسقلان ، وهو آمن من جانب أتابكة دمشق [١] .

والواقع ان الخلافة الفاطمية كانت تحتضر فعلا عند منتصف القرن الثانى عشر. وعندما توفى الخليفة الحافظ سنة ١١٤٩، خلفه ابنه الظافر (١١٤٩ — ١١٥٤) الذى استبد بالسلطة فى عهده الوزير العادل بن السلار . وفى الوقت الذى كان الخليفة الفاطمى يكيد لابن السلار ويدبر المؤامرات للتخلص منه بسبب اعتناق ابن السلار للمذهب السنى [٢] ؛ اذا بابن السلار يضع مشروعا لمقاتلة الصليبيين فى غزة وعسقلان ، ويسعى للاتفاق مع نور الدين محمود لتنفيذ هذا المشروع . وكان أسامة بن منقذ فى مصر عندئذ ، فاستدعاه الوزير الفاطمى ابن السلار ، وعهد اليه بمهمة الاتصال بنور الدين ، وقال له « تأخذ معك مالا وتمضى اليه ينازل طبرية ، ويشغل الفرنج عنا لنخرج من هاهنا نخرب غزة » [٣] . وربما سمع الوزير ابن السلار بنية ملك بيت المقدس الصليبى فى الاستيلاء على عسقلان وغزو مصر ، فأراد بهذا المشروع أن يصرفه عن قصده . ومهما يكن من أمر فان أسامة بن منقذ سافر من مصر مزودا بستة آلاف دينار مصرية ، عدا الثياب وغيرها ، واتجه الى الشام حيث التقى مع أسد الدين شيركوه فى بصرى ، ومنها صحبه الى دمشق . ولكن نور الدين محمود أبى الاستجابة لمشروع ابن السلار ، وقال لأسامة « يافلان ، أهل دمشق أعداء ، والافرنج أعداء . ما آمن منهما اذا دخلت بينهما !! [٤] » ومعنى هذا أن نور الدين محمود أبى أن يغامر بحرب ضد مملكة بيت المقدس الصليبية فى ذلك الدور الذى لم تكتمل فيه الجبهة الاسلامية المتحدة ، والذى كان حكام دمشق فيه ينصابونه العداء ، مما يوقعه بين نارين . ومع ذلك فان نور الدين محمود سمح لأسامة أن يستأجر بالمال الذى زوده به الوزير الفاطمى ابن السلار جندا يحارب بهم الصليبيين ، فجمع أسامة ثمانمائة وستين فارسا ، وزوده نور الدين بثلاثين فارسا من أصحابه ، حتى يكون الاسم له فيما قد يحققه من انتصارات على الصليبيين [٥] .

---

(١) Grousset : Hist. des Croisades, Tome 2, p.p. 342—351.

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٨٤

(٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٠

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤

(٥) المرجع السابق .

وكان أن نازل أسامة بن منقذ ـ بما توافر له من قوة ـ الصليبيين فى عسقلان وبيت جبريل ويبنا ، ولكنه لم يستطع أن يحقق أى نجاح حربى ملحوظ فى تلك العمليات الحربية ، لصغر قواته من ناحية ، وعدم تمسكها بروح النظام والطاعة من ناحية أخرى . وعندئذ استدعاه الوزير الفاطمى ابن السلار الى القاهرة ، فحضر تاركا أخاه عز الدولة أبو الحسن على فى عسقلان ليواصل مقاتلة الصليبيين فى غزه ؛ ولكن أبا الحسن لم يلبث أن استشهد فى تلك العمليات[1] .

ومهما يكن من أمر ، فاننا نخرج من هـــذه الأحداث بعدة معان : أولها استمرار تمسك وزراء الدولة الفاطمية ـ وهم أصحاب النفوذ الفعلى فيها ـ بفكرة الجهاد . وثانيها اتجاه هؤلاء الوزراء الى زنكى ثم الى ابنه نور الدين محمود طالبين محالفتهم والاستعانة بهم فى تنفيذ مشاريعهم ضد الصليبيين ، وذلك بعد أن يئس الوزراء من أمر الخلفاء الفاطميين أنفسهم ؛ وثالثها اضطراب أحوال الدولة الفاطمية وضعفها ، وعجزها عن القيام بعمل حربى منفرد ضد الصليبيين بالشام .

وهكذا وجد بلدوين الثالث ملك بيت المقدس فى أوضاع القوى الاسلامية فى مصر والشام خير مشجع له على القيام بمشروعه الكبير الخاص بالاستيلاء على عسقلان ـ تمهيدا لمد نفوذه الى مصر نفسها ـ ؛ فشرع فى حصار عسقلان فى أواخر يناير ١١٥٣ ، منتهزا فرصة الاضطرابات الداخلية فى مصر « واشتغالهم (الفاطميون) عن عسقلان »[2] . وقد استمر الحصار بضعة أشهر ، حاول الفاطميون خلالها أن يمدوا أهل عسقلان بالمعونة عن طريق البحر ، فأرسلوا أسطولا كبير من سبعين سفينة محملة بالسلاح والمؤن ، ونجح ذلك الاسطول فى اختراق الحصار الذى فرضته الأساطيل الصليبية على عسقلان من ناحيـــة البحر[3] . وكان وصول هذه النجدة الى حامية عسقلان حافزا لها على مواصلة المقاومة فى صبر وشجاعة . ولكن الحصار طال ، وازداد هجوم الصليبيين عنفا ، فلم تجد حامية عسقلان بدا من طلب الأمان ، ودخل الصليبيون المدينة فى ١٩ أغسطس سنة ١١٥٣ ليحولوا جامعها الكبير الى كنيسة تحمل اسم القديس بولس. ومع ذلك فقد امتدح ابن القلانسى سلوك الصليبيين تجاه أهل عسقلان ، اذ سمحوا

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ ـ ١٦

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٨ هـ .

(٣) Guillaume de Tyr ; p. 801.

لهم بالخروج سالمين « فخرج منها من أمكنة الخروج فى البر والبحر الى ناحية مصر وغيرها »[١] .

وباستيلاء الصليبيين على عسقلان ، يكونوا قد أتموا بسط سيطرتهم على ساحل الشام وفلسطين بأجمعه من اسكندرونه فى الشمال حتى غزة فى الجنوب ، الأمر الذى حرم الفاطميين من قاعدة بحرية طالما استخدموها فى مهاجمة الممتلكات الصليبية فى فلسطين . على أننا لا نميل الى المبالغة فى أهمية استيلاء الصليبيين على عسقلان بالنسبة لحماية وجودهم فى فلسطين بالذات . حقيقة ان سقوط عسقلان كان آخر نصر حربى كبير أحرزه ملوك بيت المقدس ، وحقيقة ان عسقلان ظلت أمدا طويلا ــ قبل استيلاء الصليبيين عليها ــ قاعدة تخرج منها الجيوش الفاطمية لغزو المواقع الصليبية القريبة فى جنوب فلسطين ؛ ولكننا يجب أن تتذكر أن الدولة الفاطمية فى الوقت الذى فقدت عسقلان لم تبق لها ممتلكات ذات أهمية فى فلسطين ، ولم تعد مصدر خطر كبير أو صغير على الصليبيين ، بعد أن أمست فى درجة من الضعف والانحلال حال بينها وبين القيام بأى عمل حربى ضد الصليبيين[٢] .

أما مظاهر ضعف الدولة الفاطمية وانحلالها فكثيرة ومتعددة ، أهمها عدم التعاون بين الخلفاء والوزراء ، وهو الأمر الذى بلغ فى معظم الحالات حد العداء والصدام بين الطرفين . ثم التنافس بين الطموحين من رجال الدولة على الفوز بمنصب الوزارة ، وهو التنافس الذى تحول فى بعض مراحله الى تطاحن دموى عنيف ، لم يتردد خلاله كل طرف من الأطراف المتنازعة فى الاستعانة بقوى خارجية فى سبيل تحقيق غرضه والتغلب على خصمه . ولا أدل على عدم الاستقرار الذى تعرضت له الدولة الفاطمية ــ وبخاصة منذ منتصف القرن الثانى عشر ــ من أنه صار من الأمور الشائعة أن ينتهى أمر كثير من الخلفاء والوزراء بالقتل . من ذلك أن الوزير ابن السلار قتل وهو نائم فى فراشه فى ابريل سنة ١١٥٣ ، أى قبيل استيلاء الصليبيين على عسقلان بأشهر قليلة . وربما كان مقتل ابن

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢١
أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٩٠

(٢) **Runciman : op. cit. ; II ; p. 340.**

السلار فى ذلك الدور مما سهل على الصليبيين الاستيلاء على عسقلان لأنها تركت بلا حامية بعد مقتل ابن السلار[١] .

وقام بقتل ابن السلار نصر حفيد زوجته ، فقطع رأسه « وحمله الى (الخليفة) الظافر » ؛ وعندئذ تملك الخليفة الفاطمى الفرح لمقتل وزيره ابن السلار ، ووضع رأس القتيل فى بيت المال ، ونفح قاتله بعشرين صينية من الفضة فيها عشرون ألف دينار . ولم يكد يتم مقتل ابن السلار حتى تولى الوزارة عباس — والد نصر — « فخلع عليه الظافر ، وفوض اليه الأمر » . ولكن لم يلبث أن أراد الخليفة الظافر بوزيره عباس سوءاً ، فأخذ يحرض ابنه نصر على قتله مثلما قتل ابن السلار من قبل[٢] .

ويحدثنا أسامة بن منقذ — وهو شاهد عيان ، كان يعيش عندئذ بمصر ، وعلى صلة وثيقة بنصر قاتل ابن السلار — كيف حرص الخليفة الظافر الفاطمى على مواصلة ارسال الهدايا الضخمة من « الكسوات من كل نوع ما لا رأيت مثله مجتمعا قبله » ؛ فضلا عن المال الوفير والبغال والجمال ... وغيرها ، الى نصر قاتل ابن السلار لتحريضه على قتل والده عباس . ولكن أسامة نصحه بألا يفعل ذلك وقال له « لا يستزلك الشيطان وتنخدع لمن يعزك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل (ابن السلار) ، فلا تفعل شيئا تلعن عليه الى يوم القيامة » . وكان أن أعرض نصر عن قتل والده ، بل لقد اتفق مع والده عباس على قتل الخليفة ؛ وفعلا انتهى الأمر بقتل الظافر الفاطمى ثم قتل اخوة الخليفة نفسه . وحاول القتلة الاجهاز على أسرة الخليفة كلها « فكان ذلك من أشد الأيام التى مرت بى لما جرى فيه من البغى القبيح الذى ينكره الله تعالى وجميع الخلق »[٣] . وعندما ثار الأهالى فى القاهرة ضد هذه الأوضاع ، فر الوزير عباس من القاهرة ومعه ابنه نصر ، ولكن اخوة الخليفة الظافر حرضوا بعض الصليبيين على قتله فقتلوه سنة ١١٥٤ ، فى حين قبض على نصر حيث صلب حيا على باب زويله ، وترك معلقا هناك شهورا كثيرة ، ثم أحرقت جثته سنة ١١٥٦[٤] . وهكذا صار الوضع

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٨٦
(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٨
(٣) المرجع السابق ، ص ٢١
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ص ٥٠٠

فى الدولة الفاطمية عندئذ ، أن « مذهب القوم ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفنوهم[١] » .

وقد ترك الخليفة الظافر الفاطمى طفلا فى الرابعة من عمره ، دعى له بالخلافة وتلقب بالفائز . ولما كان هذا الطفل لا يستطيع النهوض باعباء الحكم ، فقد أرسل نساء القصر الفاطمى الى الأمير طلائع بن رزيك والى الأشمونين يستدعينه لتولى الوزارة . وعرف ابن رزيك بقوة البأس ، فتلقب بالملك الصالح ، وبذل جهدا كبيرا فى اقرار الأمن واعادة الأمور الى مجراها الطبيعى[٢] . ولم يلبث أن توفى الخليفة الفائز وهو فى الحادية عشر من عمره — سنة ١١٦٠ — فأقام ابن رزيك فى الخلافة العاضد ، الذى كان « مراهقا قارب البلوغ » ، وزوجه الوزير طلائع بن رزيك ابنته مما مكن الوزير من احكام سيطرته على الخليفة[٣] . وهكذا استمر طلائع بن رزيك يلهو بالخلفاء الصغار الذين صاروا أداة طيعة فى يده . ويتضح ذلك من العبارة التى قالها عندما هلل أهل القاهرة للخليفة الجديد ، اذ قال « كأنى بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا ، وما علموا أننى منذ ساعة استعرضهم استعراض الغنم[٤] » .

وأخيرا أحس الخليفة العاضد والأمراء بثقل ذلك الكابوس ، فدبروا مؤامرة لقتل ابن رزيك ، وتمت المؤامرة بنجاح فى سبتمبر سنة ١١٦١[٥] . وكان أن خلف ابن رزيك فى الوزارة ابنه العادل ، الذى لقب بمجد الاسلام ، ولكنه لم يظل فى الوزارة سوى خمسة أشهر ، قتله بعدها شاور حاكم الصعيد ، وتولى بدله الوزارة فى يناير سنة ١١٦٣[٦] . على أن شاور « عامل (الخليفة) العاضد بأفعال قبيحة ، وأساء السيرة فى الرعية ، وأخذ أمر مصر فى وزارته فى ادبار » . لذلك خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر ، الذى استطاع أن ينتصر على شاور ويطرده من مصر سنة ١١٦٣[٧] . ولم يلبث ضرغام أن بغى بدوره وارتكب

---

(١) اسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٩
(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٩٤ ، ابن خلكان : وفيات ، جـ ١ ص ٤٩٨
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٩ هـ . Wiet : L'Egypte Arabe, p. 289.
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ .
(٥) المرجع السابق .
(٦) عمارة اليمنى : كتاب النكت العصرية ، ص ٨٨
(٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٦

كثيرا من المظالم وأعمال الاضطهاد « وقتل كثيرا من أمراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع »[١] . وكان أن عم الاستياء والخوف الناس جميعا فى مصر ، وذلك فى الوقت الذى أخذ عمورى الأول ملك بيت المقدس (١١٦٢ ـ ١١٧٤) يفكر فى غزوها .

وقد ذكر بعض المؤرخين الصليبيين ـمثل وليم الصورى وميخائيل السريانى ـ أن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ ـ ١١٦٢) كان قد هدد بغزو مصر سنة ١١٦٠ منتهزاً فرصة الفوضى التىعمتها عقب مقتلالخليفة الفائز ، ولكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية ، سنوية قدرها مائة وستين ألف دينار[٢] . ومع أننا لم نعثر فى المراجع العربية على ما يؤيد هذه الحقيقة ، الا أننا نستبعد صحتها ، حيث أن أحوال الدولة الفاطمية فى ذلك الدور خير شاهد على ضعفها . واذا كانت الدولة الفاطمية أضعف من أن تدفع خطر أعدائها بالقوة ، فلا أقل من أن تشترى مسالمتهم بالمـــال . وهذا ـ دون شك ـ موقف معيب يتطلب التستر عليه بحيث يصـــل خبره الى الرعية فيستثيرهم ، والى كافة المسلمين فيؤذى شعورهم ويسىء الى الخلافة الفاطمية نفسها . وربما كان هذا هو السر فى عدم وصوله الى المؤرخين المسلمين وبالتالى عدم اشارتهم اليه .

ومهما يكن من أمر ، فان الملك عمورى الأول تحجج بعدم وفاء الحكومة الفاطمية بوعدها،فغزا الدلتا فىسبتمبرسنة١١٦٣ حتى وصلالى بلبيسوحاصرها، ولكن ضرغام استغل فرصة فيضان النيل وسيحان المياه فى الأراضى ، ليجبر عمورى الأول على الانسحاب الى فلسطين[٣] . ومع أن عمورى الأول قد عاد الى فلسطين فاشلا ، فان تلك الحملة الاستطلاعية لم تخل من فائدة بالنسبة له وللصليبيين . ويكفى أنها أطلعتهم عمليا على مدى ضعف مصر وعظم ثروتها ، وسهولة الاستيلاء عليها ، مما جعل عمورى يستعد لغزوة كبرى تمكنه من وضع يده على مصر[٤] . ومن ناحية أخرى فان جرأة عمورى فى مهاجمة مصر أثارت

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٥٨٨ هـ .

(٢) Michel Le Syrien, III, p. 317 & Guillaume de Tyr, p. 890.

(٣) Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury de Jreusalem en Egypte, p.p. 38-4.

(٤) Setton : op. cit. ; I ; p.p. 550—551.

مخاوف نور الدين محمود الذى كان قد استولى على دمشق سنة ١١٥٤ ، وأخذ يتطلع الى الاستيلاء على مصر لاتمام الجبهة الاسلامية المتحدة من ناحية وأحكام حصار مملكة بيت المقدس الصليبية من ناحيتى الشمال والجنوب من ناحية أخرى. وكان شاور قد هرب الى نور الدين فرارا من خصـــمه ضرغام ، وهناك فى دمشق أخذ شاور يستنجد به « وأطمعه فى الديار المصرية ، وقال له : اكون نائبك بها ، وأقنع بما تعين لى من الضياع والباقى لك »[١] . كذلك تعهد شاور لنور الدين ــ اذا ساعده الأخير فى العودة الى الوزارة بمصر ــ أن يدفع له ثلث دخل البلاد « ويتصرف على أمره ونهيه واختياره[٢] » .

ويبدو أن نور الدين محمود تردد كثيرا عندئذ فى ارسال حملة الى مصر ، خوفا من أن يتورط فى ذلك المشروع وهو لايزال أمام أعداء أقوياء فى الشام . وبعد أن استخار نور الدين القرآن ، أرسل حملة صحبة شاور الى مصر سنة ١١٦٤ بقيادة أسد الدين شيركوه ، ورافق شيركوه فى تلك الحملة ابن أخيه صلاح الدين الذى كان عندئذ فى السابعة والعشرين من عمره . وكان أن استنجد ضرغام بالصليبيين ، وتعهد لعمورى ــ مقابل مساعدته ــ أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين[٣] . على أن مهارة القائد الكردى شيركوه ، واسراعه فى قطع الصحراء ــ رغم تقدم سنه ــ جعلته يكسب قصب السبق ، فوصل الدلتا قبل الصليبيين ، وانتصر عند تل بسطا على جيش أرسله ضرغام ، بحيث لم يكد يحل أول مايو سنة ١١٦٤ ، الا وكان شيركوه ــ ومعه شاور ــ قد بلغا أسوار القاهرة . ولم يلبث أن تخلى الجيش والخليفة وعامة الناس عن ضرغام ، فقتل أثناء محاولته الفرار ، وتولى شاور الوزارة[٤] .

وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن شاور بأنه كان « خبيثا سفاكا للدماء » ؛ فأساء معاملة الناس ، ونسى وعوده المعسولة لنور الدين ، بل سرعان ما « ظهر منه أمارات الغدر بأسد الدين شيركوه » ؛ فرفض أن يدفع لشيركوه المال المتفق عليه ، وطلب منه الخروج من مصر[٥] . ولكن شيركوه رد على موقف شاور

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٦
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٠
(٣) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 294.
(٤) عمارة اليمنى : النكت العصرية ، ص ٧٣
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٧

باحتلال بلبيس والشرقية ، مما جعل شاور يفعل مثل سلفه ضرغام ، فاستنجد بالصليبيين[١] .

وكان أن عاد عمورى الأول على رأس جيش الى مصر مرة أخرى ، بعد أن وعده شاور بمبلغ كبير من المال[٢] . وعندما وصل ملك بيت المقدس الى فاقوس ، لم يشأ شيركوه أن يتجه نحو القاهرة ، وانما اختار أن يقوى مركزه فى بلبيس حيث حصل على مساعدات من عرب كنانة . وحدث ذلك فى الوقت الذى حضر شاور من القاهرة على رأس جيشه واشترك مع عمورى فى حصار شيركوه فى بلبيس ، حتى تم الاتفاق أخيرا على أن يغادر شيركوه وعمورى الأول مصر ، واتفق على ذلك فى أواخر سنة ١١٦٤ بعد أن تعهد شاور بأن يدفع لشيركوه ثلاثين ألف دينار أخرى[٣] . وربما كان عمورى الأول اكثر تلهفا على تلك الاتفاقية ، حيث أن هجمات نور الدين اشتدت على الصليبيين فى غيابه ، مما تطلب عودته الى بلاد الشام على وجه السرعة[٤] .

والواقع أن نور الدين والصليبيين خرجوا جميعا من تجربتهم العملية فى أرض مصر بفكرة واضحة عن مدى ثروة البلاد وضعفها الشديد ، حتى بدا لهم أن الاستيلاء عليها يمثل الهناء دون عناء ، لولا تربص كل طرف للآخر ، وحرص كل جانب على أن ينفرد بالغنيمة كاملة دون خصمه . ويذكر أبو المحاسن أن شيركوه غادر مصر « وهو فى غاية من القهر »[٥] ؛ كما يذكر ابن الأثير أن شيركوه لم يستطيع عقب عودته الى بلاد الشام أن ينسى مصر ، فظل « بعد عوده منها لايزال يتحدث بها وبقصدها ، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير»[٦] ولو ترك الأمر لشيركوه لعاد الى مصر سنة ١١٦٥ أو سنة ١١٦٦ ، ولكن يبدو أن نور الدين محمود خشى أن يقوم بمحاولة جديدة ضد مصر فى هاتين السنتين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٩ هـ .
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٣١ .Schlumberger : op. cit. ; p. 58
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث ٥٥٩ هـ ، أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ص ١٣٢
(٤) Grousset : op. cit., II, p. 458.
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٨
(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

خوفا من تشتيت جهوده وتقسيم قواته ، فى الوقت الذى كان الموقف فى بلاد الشام يستدعى شيئا من اليقظه والانتباه[١] .

على أنه يلاحظ أن الطمع فى ثروة مصر ، والخوف من أن يستفيد منها الصليبيون حربيا وماديا ، لم تكن الدوافع الوحيدة لاهتمام نور الدين فى ذلك الدور بأمر مصر ، وانما كان هناك ـــ بالاضافة الى ماسبق ـــ دافع آخر مذهبى له أهميته فى توحيد الجبهة الاسلامية . ذلك أن الخلافة الفاطمية بوضعها فى مصر كانت مصدرا من مصادر الفرقة فى العالم الاسلامى ، لأن قيامها فى القاهرة كان كفيلا ببقاء المذهب الشيعى حيا ـــ على الأقل فى مصر ـــ فى حين ساد المذهب السنى بلاد الشام وغالبية العراق . ويحتمل أن تكون قد دارت مباحثات واتصالات قوية بين نور الدين وقائده شيركوه من ناحية والخليفة العباسى من ناحية أخرى، وذلك قبل أن يعهد نور الدين الى شيركوه بمهمة غزو مصر سنة ١١٦٧[٢] .

وثمة أسباب أخرى ذكرها المؤرخ أبو المحاسن ، جعلت نور الدين يرسل شيركوه مرة ثانية الى مصر ، أهمها أن الخليفة العاضد الفاطمى عندما رأى استبداد شاور وأنه غلب عليه ، أرسل الى نور الدين يستنجده ، ويعلمه أن شاور « قد استبد بالأمر وظلم وسفك الدم » هذا الى أنه كان « فى قلب نور الدين من شاور حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالفرنج »[٣] .

وكان أن غادرت الحملة النورية الثانية دمشق فى يناير ١١٦٧ قاصدة مصر تحت قيادة شيركوه ، وبصحبته أيضا ابن أخيه صلاح الدين[٤] . وعندما أدرك شيركوه الدلتا عمل حسابا لاستنجاد شاور بالصليبيين ، فوجد أنه ليس من الحكمة مهاجمة القاهرة ، واختار أن يعبر النيل عند أطفيح الى الجيزة حيث عسكر فى مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل[٥] . وقد صح ما توقعه شيركوه ، اذ استنجد شاور بعمورى الأول ملك بيت المقدس ، الذى أسرع

---

(١) Schlumberger : op. cit. ; p.p. 101—102.

(٢) Grousset : op. cit. ; II ; p.p. 478—479.

(٣) ابو المحاسن : النجوم ، جـ ٥ ص ٣٤٨

(٤) ابن شداد : النور السلطانية ، ص ٦٥

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ص ١٤٢ .Wiet : op. cit. p. 295

فى نهاية يناير ١١٦٧ ليغزو مصر بجيوشه للمرة الثالثة . ويبـــدو أن ظروف الصليبيين فى بلاد الشام كانت تستدعى بقاء عمورى عندئذ ، ولكنه اضطر الى قبول دعوة شاور طمعا فى ملك مصر « وخوفا من أن يملكها أسد الدين ، فلا يبقى لهم (للصليبيين) فى بلادهم مقام معه ومع نور الدين » وهكذا خرج الصليبيون الى مصر « الرجاء يقودهم والخوف يسوقهم » ، وفق تعبير ابن الأثير(١) ، فساروا فى الطريق المألوف من غزة الى العريش ، ثم اخترقوا الصحراء الى بلبيس ، حيث خف شاور للقاء حلفائه وقادهم الى حيث عسكروا على الضفة الشرقية للنيل ، فى حين كان شيركوه لايزال مرابطا على الضفة الغربية(٢) .

وقد أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع الفاطميين تضمن لهم أجرهم قبل أن يقوموا بمحاربة شيركوه ، فتعهد لهم شاور بدفع أربعمائة ألف دينار فى حالة بقائهم ، حتى طرد شيركوه من مصر ، بشرط أن يدفع نصـــف هذا المبلغ فورا(٣) . وكان أن رحب الصليبيون بتلك الاتفاقية التى تجعل منهم حماة مصر والخلافة الفاطمية . ولدعم هذه الاتفاقية واعطائها صبغة رسمية ، أرسل عمورى الأول سفارة الى الخليفة الفاطمى زارته فى قصره الفخم حيث تم ابرام الاتفاق فى صورته النهائية ، وعاد رسل الصليبيين ، ولا حديث لهم الا عظمة البلاط الفاطمى(٤) .

وعندما استعد الفاطميون والصليبيون لمهاجمة شيركوه ، وجدوا أنه لابد لهم من عبور النيل الى الضفة الغربية ، فأخذوا يعبرون الى جزيرة الروضة ، وعندئذ أدرك شيركوه حرج موقفه ، فاتجه الى الصعيد وفى أثره عمورى الأول وشاور(٥) . وقرب الأشمونين فى المنيا دارت معركة البابين فى مارس سنة ١١٦٧ واشترك فيها صلاح الدين . وقد هزم الصليبيون فى تلك المعركة ، وان كان انتصار شيركوه غير حاسم « وكان هذا من أعجب ما يؤرخ به أن ألفى فارس

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) Schlumberger : op. cit. ; p. 116.
(٤) Guillaume de Tyr ; p.p. 909—913.
(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٤٢

يهزم عسكر مصر وفرنج الساحل » . أما عمورى فقد قفل راجعا ومعه بقية جيشه ، حيث عسكر قرب الفسطاط على الضفة الشرقية للنيل[١] . وكان من الممكن أن يستولى شيركوه على القاهرة « لو ساق خلفهم »[٢] ، ولكنه اختار أن يتجه شمالا على الضفة الغربية للنيل ليحتل الاسكندرية ، فى الوقت الذى ظل الصليبيون قابعين أمام الفسطاط . واذا كان عسف شاور وجوره لم يمكنا أهل القاهرة من التعبير عن استيائهم لتحالف حكامهم مع الصليبيين ، فانه كان من الصعب أن يقبل أهل الاسكندرية ـ مع ماهو معروف عنهم دائما من نخوة وشهامة ـ ذلك الوضع ، فضلا عن أن بعدهم عن العاصمة وملامستهم الخطر الصليبى عن طريق البحر جعلهم أكثر احساسا بذلك الخطر وأكثر حرية فى التعبير عن شعورهم . لذلك لم يكن شيركوه يقرب من الاسكندرية حتى « تلقاه أهلها طائعين » ، وفتحوا له أبواب مدينتهم بغير قتال . على أنه يبدو أن شيركوه خشى أن يحصره الصليبيون ومعه جميع قواته داخل الاسكندرية، فقال « أنا لا يمكننى أن أحصر نفسى » . لذلك ترك ابن أخيه صلاح الدين نائبا عنه فى الاسكندرية ، واتجه هو على رأس الجزء الأكبر من قواته عائدا الى الصعيد « فاستولى عليه وأقام يجمع أمواله »[٣] .

وفى الوقت الذى أوغل شيركوه فى الصعيد حتى قوص وحاصرها ، ساء موقف صلاح الدين وأهل الاسكندرية ، بعد أن أسرع عمورى لحصار صلاح الدين ، الذى لم يكن معه داخل المدينة سوى ألف جندى . وكان أن اشتد الحصار وقل الطعام داخل الاسكندرية ، ومع ذلك فقد « صبر أهلها على ذلك »[٤] . وعندما رأى صلاح الدين اصرار الصليبيين على حصار الاسكندرية، وخشى عاقبة ذلك الحصار ان طال ، أرسل الى عمه يطلب النجدة العاجلة ، فاضطر شيركوه الى العودة شمالا فى صيف سنة ١١٦٧ . ويبدو أن شيركوه أدرك فى تلك المرحلة صعوبة الاستلاء على مصر ، فأرسل الى الصليبيين يطلب

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٣ ، الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٩
(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٤٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٤٩
(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

عقد الصلح . وتم الاتفاق — كما فى المرة السابقة — على تبادل الأسرى ، وعلى أن يترك الجانبان مصر لينعم بها شاور من جديد[١] . وهنا نلاحظ أن ميول شاور ظلت مع الصليبيين ، فاتفق معهم عند انسحابهم من مصر على أن يقوموا بحمايته مقابل تعهده بدفع مائة ألف دينار سنويا ، ورضى أن يترك الصليبيون له حامية منهم تحرس أبواب القاهرة ، فضلا عن مندوب — أو شحنة — عن الملك عمورى يشارك فى شئون الحكم[٢] .

والواقع أنه اذا كان عمورى الأول قد غادر مصر مضطرا سنة ١١٦٧ نظرا لصعوبة موقف الصليبيين بالشام تحت وطأة ضربات نور الدين محمود ، فليس معنى ذلك أن عمورى عدل عن فكرة الاستيلاء على مصر . ويذكر أبو المحاسن أن الصليبيين عندما حضروا الى مصر فى المرات السابقة « اطلعوا على عوارتها وطمعوا فيها »[٣] وهكذا لم يعد فى وسـع الصليبيين أن يتخلوا عن فكرة الاستيلاء على مصر طمعا فى ثروتها وحماية لكيانهم بالشام . ولكن عمورى أدرك أنه فى حاجة الى قوة خارجية تمكنه من تحقيق حلمه الكبير فى الاستيلاء على مصر ، ولذلك فكر فى تقوية الرابطة مع الأمبراطورية البيزنطية ، ولم يحجم عن الزواج سنة ١١٦٧ من الأميرة مارى كومنين قريبة الأمبراطور البيزنطى مانويل الأول كومنين[٤] . ومن الثابت أن أباطرة القسطنطينية لم يكونوا فى غفلة عما جرى فى مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية ، وتنافـس نور الدين محمود وعمورى الأول حول الفوز بوادى النيل . ولم يلبث الامبراطور أن أرسل مبعوثين سنة ١١٦٨ الى بيت المقدس للاتفاق على عمل مشترك ، فتقوم القوات البيزنطية الصليبية بفتح مصر[٥] . وكان الثمن الذى اتفق على أن يتقاضاه الامبراطور لقاء مساعدته الصليبيين هو جزؤ من مصر ، فضلا عن أنطاكية[٦] . وقد وافق عمورى الأول على تلك الشروط ، وأرسل مبعوثا ـ هو المؤرخ الشهير وليم الصورى ـ الى القسطنطينية حيث تم

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٦٦ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٤٣

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٧

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٠ .

(٤) Grousset : op. cit. ; II ; p. 504.

(٥) Guillaume de Tyr ; p. 947.

(٦) Schlumberger : op. cit. ; p. 185.

عقد اتفاقية بين الطرفين فى سبتمبر سنة ١١٦٨ تنص على تقسيم مصر بين البيزنطيين والصليبيين[١] .

على أنه لم يقدر للاتفاقية السابقة بين البيزنطيين والصليبيين أن تنفذ ، اذ لم يشأ الملك عمورى أن ينتظر فراغ الامبراطـــور من مشاغله فى البلقان ، وانفرد — دون شركائه البيزنطيين — بالهجوم على مصر . وقد يبدو لأول وهلة أن السبب فى ذلك التحول انمـــا يرجع الى عدم رغبة عمورى فى أن يشاركه البيزنطيون فى اقتسام مصر حتى ينفرد وحدة بالصيد ، لاسيما وأن روح العداء بين البيزنطيين الشرقيين والصليبيين الغربيين كانت هى الروح السائدة طوال أدوار الحركة الصليبية . ولكن الواقع هو أن عمورى الأول وجد نفسه مضطرا الى الاسراع فى العمل نتيجة لانقلاب سياسة شاور ضد الصليبيين[٢] .

ذلك أن شاور أخذ يتخوف من المساعدة الصليبية التى تحولت الى حماية ، بل الى نوع من الوصاية على الدولة الفاطمية . فوجود مندوب أو شحنة عن ملك بيت المقدس الصليبى فى القاهرة يشاركه فى شئون الحكم ، ووجود حامية من الصليبيين تحرس أبواب القاهرة ، كل ذلك أزعج الفكر الاسلامى[٣] . وفى الوقت الذى كان الشعور الدينى فى العالم الاسلامى معبأ ضد الصليبيين ، والدعوة الى الجهاد يتردد صداها فى مشارق العالم الاسلامى ومغاربة ، اذا بالمسئولين فى الدولة الفاطمية يستعينون بالصليبيين ويطلبون حمايتهم ضد قوة اسلامية شقيقة مجاورة . وقد ذكر ابن الأثير أن أولئك الصليبيين الذين استعان بهم شاور أســاءوا معاملة أهل البلاد « وحكموا على المسلمين حكما جائرا وركبوهم بالاذى[٤] ! ! » هذا الى أن الاتاوة السنوية التى فرضها عمورى على شاور ــ وهى مائة ألف دينار ــ أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية ، فى الوقت الذى ضعفت تلك الدولة ونضبت مواردها . وهكذا لم يجد شاور مفرا ــ أمام ضغط الرأى العام وشعوره بالاستياء ــ من أن يقلب ســياسته

---

(١) Guillaume de Tyr ; p. 947.

(٢) Chalendon : Comnenes, II, p.p. 537—538.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٧

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

رأسا على عقب ، فاتصل بنور الدين محمود طالبا مساعدته فى التخلص من الحماية الصليبية !! [١] . ويذكر أبو شامة أن شاور أرسل ابنه ـ الكامل شجاع ـ الى نور الدين محمود « ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول فى طاعته ، » مما ترتب عليه عقد اتفاقية بين الطرفين . كذلك حاول شاور تأكيد هذه الرابطة الجديدة عن طريق المصاهرة ، فعرض أن يتزوج ابنه الكامل شجاع أخت صلاح الدين أو يتزوج صلاح الدين ابنة شاور[٢] .

على أنه يبدو أن تدخل عمورى مرة أخرى فى شئون مصر لم يكن مرجعه تبدل سياسة شاور فحسب ، وانما تعرض ملك بيت المقدس لضغط من جانب فرسانه وأمرائه الذين وجدوا فى مصر لقمة سائغة ، فظلوا يدفعون ملكها دفعا للاستيلاء عليها . ويروى ابن الأثير أن رجال الحامية الصليبية فى مصر أرسلوا الى عمورى «يستدعونه ليملكها وأعلموه خلوها من الموانع وهونوا أمرها عليه» ولكن عمورى تردد كثيرا قبل القيام بتلك الخطوة ، اذ أدرك أنه لن يتعرض لمقاومة الحكام فحسب ، وانما لمقاومة الأهالى أنفسهم ، وأن المسألة ليست مسألة الخليفة العاضد أو الوزير شاور ، وانما هى مسألة شعب بأسره سيقف فى وجهه . لذلك قال عمورى لأصحابه أنه لو أقدم على تلك الخطوة فان « صاحب مصر وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلوننا دونها ! »[٣] ولعله مما يشرف مصر وتاريخها أن الملك عمورى والصليبيين عملوا حسابا لعامة أهل مصر وفلاحيها فى الوقت الذى كانوا يعلمون جيدا مدى انحلال حكام مصر وضعف حكومتها ! وهكذا دب الخلاف بين الصليبيين سنة ١١٦٨ حول السياسة الواجب اتباعها تجاه المسألة المصرية ، فرأى الملك عمورى الأول الاكتفاء بسياسة الحماية التى يتبعها الصليبيون ، فى حين نادت جمهرة أمراء الصليبيين بأنه لابد من غزو مصر واخضاعها للصليبيين « وقالوا ان مصر لا مانع لها ولا حافظ »[٤] . وكان أن انتصر الرأى الأخير ، فأعد عمورى جيشا كبيرا أسهم فيه فرسان الاسبتارية مساهمة فعالة[٥] .

---

(١) عمارة اليمنى : النكت العصرية ص ٨١ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٦٧ — ٦٨

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧٠

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٧

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٤

(٥) King : The Knights Hospitallers in the Hoby Land, p. 94.

وفى أواخر اكتوبر سنة ١١٦٨ غادر عمورى الأول عسقلان متجها نحو دلتا النيل لغزو مصر للمرة الرابعة ، فوصل بلبيس فى أول نوفمبر سنة ١١٦٨ ولكن عمورى لاحظ تغييرا فى موقف المصريين منه عندئذ بدليل أن بلبيس أغلقت أبوابها فى وجهه تلك المرة . وعندما طلب عمورى من طى بن شاور ــ الذى كان بالمدينة ــ أن يسمح له ولجنده من الصليبيين أن يعسكروا داخل بلبيس ، أجابه طى « على أسنة الرماح ... أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها ؟! » فرد عليه عمورى « نعم هى جبنة والقاهرة زبدة !! »[١] . ومن الواضح أنه اذا كان عمورى قد غزا مصر قبل ذلك بناء على طلب من بعض القوى المتنازعة داخل البلاد ، مما أوجد له سندا يستند اليه ، فانه هذه المرة أتى الى مصر دون أن يستدعيه أحد أو يكون له حليف داخل البلاد ، مما زاد من صعوبة موقفه . وكان أن اضطر عمورى الى محاصرة بلبيس ومهاجمتها للاستيلاء عليها عنوة فى أوائل نوفمبر سنة ١١٦٨ . وعند دخول الصليبيين بلبيس ارتكبوا حماقة كبرى ؛ اذ « قتل (عمورى) من أهلها خلقا عظيما وضرب اكثرها وأحرق جل دورها » ؛ مما ترك أسوأ الأثر فى نفوس الأهالى[٢] .

ولم يلبث أن اقترب عمورى الأول من القاهرة فى ١٣ نوفمبر سنة ١١٦٨ حيث عسكر عند بركة الجيش جنوبى الفسطاط . وهنا يذكر ابن الأثير أن أهل القاهرة عزموا على المقاومة حتى لا يتعرضوا للمصير السىء الذى تعرض له أهل بلبيس ، كما يؤكد أنه « لو كان الفرنج أحسنوا السيرة فى بلبيس لملكوا مصر والقاهرة »[٣] . أما شاور فقد أحس فى ذلك الوقت بحرج موقفه واستياء الناس منه ، فأشعل النار فى الفسطاط وأحرقها أولا عن آخر ، بعد أن « أنذر أهلها فخرج الناس منها على وجوههم » ؛ وعندئذ نقل عمورى معسكره أمام القاهرة قرب باب البرقية[٤] . ولكن القاهرة التى امتلأت باللاجئين من الفسطاط عزمت على المقاومة ، فى الوقت الذى وصل الاسطول الصليبى الى بحيرة المنزلة وتنيس ولكنه لم يستطع التقدم فى النيل جنوبا صوب القاهرة ، بسبب العقبات التى

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧٠

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٧٠ & Guillaume de Tyr, p. 951

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧١

وضعها المصريون فى مجرى النيل[١] . ولم يلبث أن أخذ عمورى يتراجع عن القاهرة ، بعد أن أعطاه شاور مائة ألف دينار ثمنا لانسحابه[٢] ، فاتجه الى سرياقوس عن طريق المطرية ، وهناك سمع بأن شيركوه اقترب من مصر على رأس جيش كبير ، فأمر عمورى الاسطول الصليبى بالعوده الى عكا[٣] .

وكان الخليفة العاضد الفاطمى عندما رأى الخطر المحدق ببلاده قد أرسل الى نور الدين يعرض عليه « ثلث بلاد مصر اذا هو أنقذه من الصليبيين[٤] » . والواقع ان نور الدين محمود كان لا يمكن أن يترك الصليبيين يحتلون مصر ، فلم يكد يسمع بعودة الملك عمورى والصليبيين الى مصر ، حتى « أسرع بتجهيز العساكر خوفا على مصر » . كذلك يروى أبو شامة أن نور الدين أخذ يتخوف عندئذ من تردد الصليبيين على مصر بين حين وآخر ، وأدرك « أن شاور يلعب بهم تارة وبالفرنج أخرى » . لذلك قر رأيه على أن يتخذ موقفا حازما من المسألة المصرية[٥] .

وفى الوقت الذى اقتربت جيوش نور الدين من حدود مصر الشرقية ، اتخذ عمورى خطة تستهدف الاتجاه من سرياقوس الى بلبيس ، حيث ترك هناك قوة تحمى الطريق المؤدى الى القاهرة ، ثم التقدم نحو فاقوس لمباغتة قوات شيركوه وهى قادمة متعبة عبر الصحراء الشرقية ، والقضاء عليها قبل أن يلتف حولها المصريون (ديسمبر ١١٦٨)[٦] . ولكن هذه الخطة التى وصفها عمورى الأول أنهارت من أساسها عندما علم أن شيركوه اخترق الصحراء الى القاهرة ، وأنه ادرك عاصمة مصر فعلا حيث التف حوله الأهالى بوصفه المدافع عنهم وعن دين الاسلام ؛ فى حين لم يستطع شاور نفسه ـــ الذى كان الدعامة التى اعتمد عليها عمورى فى المرتين السابقتين ـــ أن يفعل شيئا . وهكذا لم يبق أمام عمورى الأول سوى أن يسحب حاميته التى تركها فى بلبيس ، وينسحب ومعه رجاله فورا (يناير ١١٦٩) « عائدين الى بلادهم بخفى حنين ، خائبين مما أملوه »[٧] .

(١) Giullaume de Tyr, p. 953.
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٠ .
(٣) Schlumberger : op. cit. ; p.p. 208—209.
(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .
(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ص ١٥٧
(٦) Guillaume de Tyr, p. 955.
(٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٨ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ص ١٧١

أما شيركوه ، فقد « فرح به أهل مصر » ، واستقبل استقبال البطل المخلص عند وصوله الى القاهرة . وقد عسكرت قواته عند باب اللوق على باب القاهرة ، فأستدعاه الخليفة العاضد الفاطمى الى القصر ، وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور ، وأخذ أرباب الدولة يترددون الى خدمته فى كل يوم[١] . وكان من الطبيعى أن يحقد شاور على شيركوه ، وخاصة بعد أن ظهر تأييد الخليفة العاضد لشيركوه وميله اليه ، فأرسل شاور مرة أخرى الى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ، ويقول لهم « يكون مجيئكم فى دمياط فى البحر والبر »[٢] . بل ان شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه أثناء وليمة يدعوهم اليها ، ولما عارضه ابنه الكامل فى ذلك ، رد شاور على ابنه قائلا « لئن لم نفعل هذا لنقتلن كلنا » . وكانشاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد لشيركوه ، فلما أرسل الأخير يطلب منه الوفاء بوعده ، أخذ يماطل فى انتظار وصول الصليبيين لنجدته . وأخيرا أدرك « أعيان الدولة بمصر » خطر سياسة شاور وسوء نيته ، فاجتمعوا عند شيركوه ، وقالوا له « شاور فساد العباد والبلاد ، وقد كاتب الفرنج ، وهو يكون سبب هلاك الاسلام » ؛ وطالبوا بقتله[٣] .

وهكذا انتهى الأمر بقتل شاور وولده الكامل فى يناير سنة ١١٦٩ وقيل ان الخليفة العاضد الفاطمى شارك فى المؤامرة التى عصفت بشاور . وبعد ذلك دخل شيركوه — ومعه صلاح الدين — القاهرة دخول الظافرين ، حيث أباحوا للأهالى نهب قصر شاور[٤] .

على أن شيركوه لم يلبث أن توفى بعد شهرين (مارس ١١٦٩) ، فخلفه فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين . ويقال ان الخليفة العاضد الفاطمى أصر على اختيار صلاح الدين بالذات للوزارة —دون غيره من أمراء جيش نور الدين بمصر— لأنه ظن أن صغر سنه وعدم خبرته ستجعله أداة سهلة طيعة فى يد الخليفة[٥] .

---

(١) اختلفت الأقوال فى أن الخليفة العاضد الفاطمى خلع على شيركوه بخلعة الوزارة قبل مقتل شاور أو بعده ، ونرجح صحة الرأى الأخير الذى قال به ابن شداد (سيرة صلاح الدين ، ص ٦٨) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥١

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦٢ — ١٦٣

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٢

ولكن صلاح الدين ما كاد يتولى الوزارة حتى خيب ظن الخليفة الفاطمى وكبار أعوانه ، اذ شرع فى استمالة قلوب الناس اليه « فمال الناس اليه وأحبوه ... وضعف أمر العاضد » . ثم انه استطاع أن يكتسب ولاء الجند بعد أن « أحسن لجميع العسكر الشامى والمصرى فأحبوه وأطاعوه »[١] . وكان ذلك فى الوقت الذى أمده نور الدين بقوة جديدة من العسكر ، استعان بها صلاح الدين فى القضاء على شوكة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه العاضد الفاطمى لاستعادة نفوذه [٢] . وهنا يظهر اسم الصليبيين مرة أخرى فى صفحة الأحداث المعاصرة . ذلك أن رئيس بلاط قصر الخليفة ــ وهو نوبى خصى اسمه مؤتمن الخلافة ــ استاء من صلاح الدين عندما « ثقلت وطأته على أهل القصر » ؛ فدبر مؤامرة للخلاص من صلاح الدين ، وحاول أن يتبع أساليب ضرغام وشاور ، فيتصل بعمورى والصليبيين « ليتقوى بهم على صلاح الدين » . ولكن رسالة مؤتمن الخلافة الى عمورى وقعت فى يد صلاح الدين ، الذى رأى أن يستأصل الشر من جذورة ، فقتل مؤتمن الخلافة فى أغسطس سنة ١١٦٩ ، ثم قضى فى حزم على ثورة الجند السودان التى اندلعت بعد ذلك[٣] .

ومن الواضح أن صلاح الدين قام فى تلك المرحلة بدور مزدوج بوصفه وزير الخليفة العاضد الفاطمى من ناحية وقائد جيش نور الدين فى مصر من ناحية أخرى. ولكن الصليبيين كانوا لا يمكن أن يرضوا عن ذلك الوضع الجديد الذى نجم عن سيطرة قوات نور الدين على مصر ، والذى ترتب عليه احاطة جيوش نور الدين بمملكة بيت المقدس الصليبية من ناحيتى الشمال والجنوب . ويقول ابن واصل « ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية ... أيقن الفرنج بالهلاك » . فى حين يقول إبن الأثير « كان افرنج الساحل لما ملك أسد الدين (شيركوه) مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك ... وأنهم خائفون على بيت المقدس[٤] » .

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٥
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٧٤
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ ، ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ص ١٧٨
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٧٩ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٤٣

ولم يلبث الشعور بالفزع والقلق على المستقبل أن دفع عمورى الأول ملك بيت المقدس الى ارسال سفارة الى الغرب الأوربى لتطلب من امبراطور ألمانيا (فردريك بربروسا) وملك فرنسا (لويس السابع) وملك انجلترا (هنرى الثانى) وملك صقلية (وليم الثانى) بالاسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة لانقاذ اخوانهم الصليبيين بالشرق من الوقوع بين فكى الكماشة[١] . غير أن الأوضاع السياسية فى غرب أوربا عندئذ ، لا سيما فيما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والامبراطورية ، حالت دون تحقيق أمنية عمورى الأول وشركاه[٢] . وبذلك لم يبق أمام الصليبيين بالشام سوى الاتجاه الى الدولة البيزنطية ، وطرق أبواب القسطنطينية طالبين مساعدتها .

والواقع ان الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين لم يكن أقل انزعاجا لاتحاد مصر والشام تحت زعامة نور الدين محمود ، فرحب فورا بتجديد اتفاقية سنة ١١٦٨ بينه وبين الصليبيين حول الاشتراك فى مهاجمة مصر واقتسامها[٣] . وكان أن أعد الامبراطور أسطولا كبيرا غادر مياه الدردنيل فى ١٠ يوليو سنة ١١٦٩ متجها الى قبرس ، حيث انضمت اليه بعض الوحدات الاضافية ، ثم اتجهت العمارة البيزنطية نحو صور ، ومنها الى عكا لرسم الخطة اللازمة لغزو مصر بالاشتراك مع الصليبيين[٤] . ولكى يغرى الملك عمورى فرسان الاسبتارية على مساندته فى مشروعه الكبير ، أصدر مرسوما هاما فى ١١ اكتوبر سنة ١١٦٩ يقضى بمنح الاسبتارية جزءا هاما من ايراد مصر ، ونسبة ضخمة من دخل أهم المدن المصرية ، مثل الفسطاط وتنيس ودمياط والمحلة والاسكندرية وقوص واطفيح واسوان والفيوم ... ؛ مما يدل على عزم عمورى على الاستيلاء على مصر من ناحية ، وعلى اعتقاده فى امكان تحقيق ذلك من ناحية أخرى[٥] .

---

(١) Guillaume de Tyr ; p. 959.

(٢) وافقت تلك الفترة الدور الثانى من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية ؛ انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ، جـ١ ، ص ٣٨٢ — ٣٩٢

(٣) Guillaume de Tyr ; p. 961.

(٤) Schlumberger : op. cit. ; p. 260.

(٥) King : op. cit. ; p.p. 100—101.

وفى الوقت الذى أقلع الأسطول البيزنطى صوب دمياط ، زحف الصليبيون برا فى ١٦ اكتوبر سنة ١١٦٩ من عسقلان الى الفرما ومنها الى دمياط « ومعهم المنجنيقات والدبابات وآلات الحصار وغير ذلك[١] » . ولكن اذا كان الصليبيون قد نصبوا معسكرهم أمام دمياط ، فان الاسطول البيزنطى لم يستطع دخول الميناء بسبب المآصر ، وهى السلاسل الحديدية الممتدة بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء[٢] .

أما صلاح الدين فقد أسرع — عندما علم بهجوم الصليبيين — الى تحصين بلبيس والقاهرة والاسكندرية ؛ ظنا منه أن الحملة الصليبية فى تلك المرة ستحذو حذو الحملات السابقة . فلما اتجهت الحملة الى دمياط وجد صلاح الدين نفسه فى موقف حرج ، لا سيما وأنه ظل يخشى باستمرار خطر مؤامرة أو ثورة ضده فى الداخل ، بتحريض من الخليفة الفاطمى ورجاله . ومع ذلك فان صلاح الدين لم ييأس ولم يستسلم ، فأرسل يطلب النجدة من نور الدين « فسير نور الدين العساكر اليه أرسالا يتلو بعضها بعضا[٣] » . وفى الوقت نفسه كان تقى الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — ، وشهاب الدين — خاله — ، قد دخلا دمياط ؛ فواصل صلاح الدين ارســال الامدادت والنجدات اليهما عن طريق النيل ، « وأمدهما بالسلاح والمال والذخائر[٤] » . وهكذا كان حصار الصليبيين للمدينة غير تام . وتشير المراجع الصليبية الى أن أهل دمياط استغلوا ظاهرة جريان تيار نهر النيل من الجنوب الى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أوانى فخارية بها مواد مشتعلة أنزلت بالاسطول البيزنطى أبلغ الضرر ، مما اضطره الى الابتعاد عن لسان النيل وعن المدينة[٥] . ولم تلبث القوات البيزنطية أن أحست بالجوع بعد أن نفد تموينها ، فاقترح القائد البيزنطى على عمورى الأول القيام بهجوم شامل

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ، ص ١٨٠

(٢) Guillaume de Tyr : op. cit. p. 965.

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٨٠ — ١٨١
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨١

(٥) Guillaume de Tyr ; ;p. 986.

على دمياط ، ولكن الملك الصليبي عارض ، بعد أن أحس بازدياد قوات صلاح الدين داخلها ، وأنه « حشر فيها كل من عنده ، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر[١] » .

ولا يخفى علينا أن النوايا لم تكن خالصة بين البيزنطيين والصليبيين ، فظل الصليبيون يتشككون دائما فى حلفائهم ، وانتشرت شائعة بين رجال عمورى بأن البيزنطيين انما ينوون أن يستأثروا بدمياط لأنفسهم عند سقوطها ، الأمر الذى أضعف قوة المهاجمين[٢] . وأخيرا وجد الصليبيون أن انتظارهم طال أمام دمياط دون جدوى ، فى الوقت الذى هاجم نور الدين ممتلكاتهم وبلادهم فى الشام ، والذى كانوا يحسبون فيه حسابا دائما لهجوم صلاح الدين عليهم من ناحية الجنوب . لذلك قرروا رفع الحصار عن دمياط ، وعادوا الى عسقلان خائبين ، ليجدوا نور الدين قد عبث ببلادهم ونهبها ، حتى شبههم ابن الأثير بالنعامة التى خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين !![٣] . أما السفن البيزنطية فقد انسحبت هى الأخرى ، ولم يستطع بحارتها السيطرة عليها والتحكم فيها بسبب ما كانوا يعانونه من جوع وارهاق ، فغرق كثير من السفن ، وظلت الأمواج تقذف جثث بحارتها على الشاطىء طوال عدة أيام تالية[٤] .

ولاشك فى أن فشل تلك الحملة الصليبية البيزنطية ، أدى الى تدعيم مركز صلاح الدين فى مصر ، وجعل الخلافة الفاطمية تفقد الأمل الأخير فى التخلص من قبضته القوية . وكان أن أرسل الخليفة العاضد الفاطمى الى نور الدين — عقب انسحاب الصليبيين — يرجوه سحب جنده الأتراك من القاهرة ، لأنهم بثوا الرعب فيها ، مع السماح ببقاء صلاح الدين وأعوانه ؛ فرد نور الدين على الخليفة الفاطمى « يمدح الأتراك ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم الا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها الاسهام الأتراك ، فان الفرنج لا يرعبون الا منهم[٥] » .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

(٢) **Runciman** : op. cit. ; II, p. 387.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ؛ ص ١٤٤

(٤) **Guillaume de Tyr** ; p. 971.

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٨١

وفى الوقت الذى كان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين قابعا فى قصره بالقاهرة لاحول له ولا قوة ، أخذ وزيره صلاح الدين يوجه من مصر ضرباته ضد الصليبيين . ففى أوائل سنة ١١٧٠ خرج صلاح الدين من مصر لمهاجمة قلاع الصليبيين على شواطىء فلسطين ، فبدأ حصار قلعة الداروم (الدارون) جنوبى غزة ، ثم حاول الاستيلاء على غزة نفسها ، ولكنه لم يستطع ذلك بسبب المساعدة العاجلة التى قدمها عمورى الأول ملك بيت المقدس ، الذى أتى بنفسه على رأس قواته لنجدة هذين الموضعين(١) . ولم يلبث صلاح الدين أن انسحب عائدا الى مصر ليستعد لضربة أخرى يوجهها ضد الصليبيين فى ميناء ايلة على خليج العقبة . ذلك أن صلاح الدين بنى عددا كبيرا من السفن وحمل أجزاءها مفككة على الجمال عبر سيناء حتى خليج العقبة ، وهناك ركبت السفن ، وأخذ صلاح الدين يهاجم أيله برا وبحرا فى نهاية ديسمبر سنة ١١٧٠ ، حتى سقطت المدينة فى يده ، واقتيد رجال حاميتها الصليبية أسرى الى القاهرة(٢) .

وهكذا أخذ الصليبيون يشعرون يوما بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم . ومرة أخرى أدرك الملك عمورى أنه لا أمل فى الحصول على مساعدة سريعة من غرب أوربا ، فاتجه الى الدولة البيزنطية بوصفها القوة المسيحية الكبرى فى الشرق الأدنى . وفى مارس سنة ١١٧١ أبحر عمورى نفسه — ومعه جماعة من أمرائه — من عكا قاصدين القسطنطينية ، حيث اتفق الملك الصليبى مع الامبراطور مانويل كومنين على ارسال حملة مشتركة ضد مصر لاحتلالها وطرد صلاح الدين منها(٣) . على أنه حدث قبل أن يتخذ الطرفان الخطوات العملية لتنفيذ ذلك الاتفاق ، أن تم الانقلاب الخطير فى تاريخ الشرق الأدنى ، وأعنى به سقوط الخلافة الفاطمية . ذلك أن صلاح الدين أمر بالدعاء للخليفة العباسى فى القاهرة فى سبتمبر سنة ١١٧١ ، فكان ذلك ايذانا بسقوط الخلافة

---

(١) Guillaume de Tyr ; I, p.p. 973—975
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٦ هـ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ جـ ١ ، ص ١٩٩
(٣) Guillaume de Tyr ; p. 980.

الفاطمية بعد حياة استمرت نحوا من قرنين من الزمان . ولم يلبث أن مات الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين (١٣ سبتمبر سنة ١١٧١) ؛ ثم مات نور الدين محمود فى دمشق فى مايو سنة ١١٧٤ ، مما مهد لقيام الدولة الأيوبية[١] .

واذا كنا نعتبر سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية أهم النتائج السياسية الكبرى التى تمخضت عنها الحركة الصليبية فى الشرق الأدنى ، فان هذه الحركة ذاتها دخلت دورا نشطا حافلا بالأحداث بقيام دولة بنى أيوب فى حكم مصر والشام .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ .